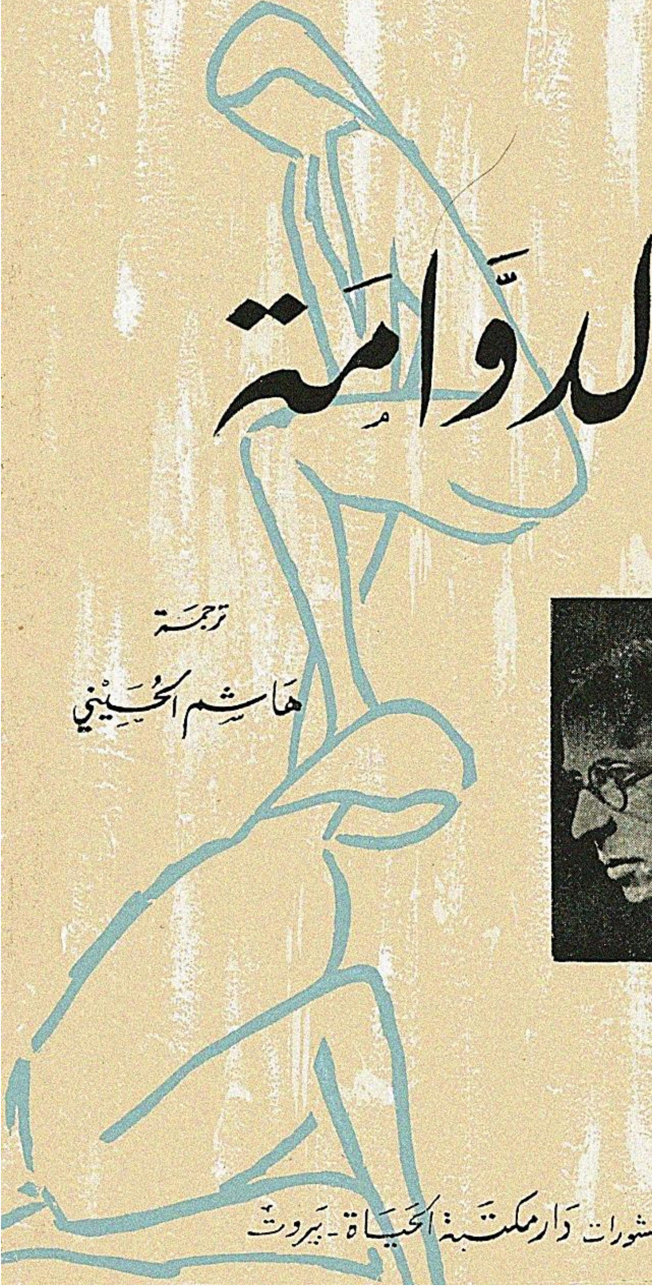
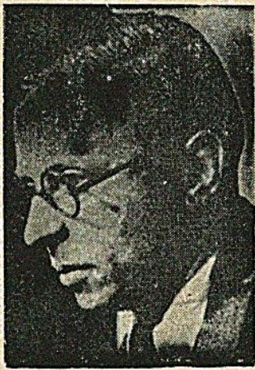
جان بول سارتر

الدوّامة





ترجمة
هاشم الحسيني

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

الدوامة

جان پول سارتر

الدَّوَّامة

ترجمة
هَاشم الحُسَيْني

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

كتب هذا السيناريو في شتاء ١٩٤٦ . وكان عنوانه في الأصل « الأيدي القذرة » .

والمسرحية ، التي ورثت اسمه جاءت بعده بسنتين .

وليس لموضوع هذا الكتاب من علاقة مشتركة بموضوع المسرحية .

على طرف مدينـــة كبيرة يقوم حقل كبير لاستخراج البترول : آبار ، مستودعات أبراج مصافي ، مخازن . ما من دلالة على الحركة ، فممرات المصنع مقفرة ، والآلات متوقفة . ما من رجل في العمل .

وبين المـــدينة والمصنع ، تقوم مدينة عمّالية . فالشوارع فيها مقفرة . والحوانيت موصدة . ومن أحد مصابيح الغاز يتدلى تمثال علـّق فوق صدره بالعرض يافطة من الكرتون يُقرأ عليها بأحرف كبيرة: جان آغيرا، الطاغية.

مطبخ بيت عمّالي

تجلس امرأة عجوز على كرسي بجوار الموقد ، قد تاهت عيناها في الفراغ وعليها أمارات القلق . وأمام النافذة تقف امرأة شابة بوجهها المنهك ، تمرّ بالفرشاة على سترة رجل وهي تنظر إلى التمثال المشنوق .

ويسمع من بعيد بعض الانفجارات تتبعها رشقات رشيش . وتقع الفرشاة على الأرض وتقترب السيدة من النـافذة فاتحة أذنيها . وتنهض العجـوز .. وتقول بإعياء :

– إنهم لا يزالون يطلقون النار ! متى ينتهي ذلك ؟

وأومأت الصبيّة بفرشاتها نحو التمثال قائلة :

– حين يتوصلون إلى شنقه بالفعل .

أحد شوارع المدينة

شارع تجاري عريض في آخره بناية ضخمة هي قصر الحكومة .

الشارع مقفر ، وقد أرخي الستار الحديدي فوق معظم الحوانيت، بعض الحوانيت الأخرى قد انكسر زجاجها . وفي وسط الشارع ، حافلة مقلوبة . وعلى أسفل الجدار ، تنطرح جثة عامل بقميص ذات أكام ، قد تغطى صدره بالحبال . كان منطرحاً على الأرض مشبوك الذراعين وأمامه بندقيته .

يسمع طلق ناري ، تعقبه هنيهـــة صمت . يخرج أحد الثوار من بوابة والبندقية في يده ، راكضاً بمحاذاة الجدران باتجاه قصر الحكومة . تنطلق نحوه رشقة رشاش . ينبطح الرجل على بطنه وراء الجثة . ويتدفق إطـلاق النار . فينهض الرجل ويلتقط بندقية الميت سريعاً ويتابع الركض . ويلج في سرداب إحدى البنايات .

باحة احدى البنايات

يحتشد في الباحة نحو عشرين من الثوار المسلحـين معهم بعض النسوة . ويقترب الرئيس من الرجل الذي قد عرفناه يسأله :

— ماذا وراءك ؟

والتف الجميع حول الثائر وهو يجيب :

— استولينا على مركز التوزيع . وهم ما زالوا يحتفظون بثكنة يا بول . لم يغادر آغيرا قصره بعد .

من بعيد يسمع أزيز الرشاشات من إحدى الردهات في قصر الحكومة .

غرفة فسيحة عادية فيها طاولة مغطاة بالمخمل . وبين نافذتين كبيرتين تقع طاولة الحاجب . غرفة اجتمع فيها نحو اثني عشر رجلاً من الأعيان باللباس

المدني أو العسكري أحدهم وزير الداخلية ماتير . رجل قصير القامة ، أصلع الرأس ، جلس إلى الطـــاولة وقد تملكه الذعر . ويقف الآخرون بصلابة وهدوء دون أن ينبسوا بكلمة. وقد طالت ذقونهم وتقلصت وجوههم ورثت ثيابهم . بحيث يشعر المرء أنهم لم يناموا طيلة الليل . وليس من نور يضيء ، سوى ضوء الفجر ينير الغرفة .

وبغتة تسمع عيارات نارية عن قرب . وتكسر الرصاصة لوح الزجـاج وتتسمر السقف . ويقترب ريباز وزير الخارجية الطويل الثقيل ذو العظـام البارزة والشارب الغليظ العديم الانتظام ، يقترب بتؤدة من النافذة ويجيل الطرف في الخارج .

ويفتح الباب ليدخل ضابط قد تقطعت أنفاسه . ويستدير الجميع نحوه ويهب ماتير واقفاً . ويعلن الضابط قائلاً :

– ها هم يتقدمون . إنها غارتهم الأخيرة .

أخذ الأعيان علماً بالخبر دون ان يبدو على سيمائهم ما يشير إلى ظنهم به ، كما لو كانوا يحذرون بعضهم من بعض سوى أن ريباز قال :

– سأبلغه .

غرفة جان آغيرا

هي غرفة صغيرة ببساطة غرف الأديرة تقريباً فيها سرير وكرسيان وطاولة وخزانة صغيرة . وقف جان أمام المرآة . هو رجل في نحو الأربعين من سنيه ، طويل القامة عريضها . قد أصيبت إحدى ذراعيه بشلل نصفي . كما انتعل جزمته السوداء ، وارتدى سروال الضابط على قميص داكنة اللون . أحد الخدم بلباسه الأسود ، يعقد له ربطة عنقه . ويُطرق البـــاب فيقول جان :

– أدخل .

– إنه ريباز . ويشير جان إلى الخادم بالخروج فيخرج . ويغلق ريباز الباب وراءه . ويقول :

– إنه الهجوم الأخير .

ويقول جان بهدوء :

– حسناً .

ويذهب إلى النافذة وينظر إلى الخارج ويضيف :

– لقد انتهى أمرنا ..

ويقول ريباز :

– هذا ممكن ، ولكن هذا سيكلفهم كثيراً من الدماء . فالرشاشات في جميع النوافذ .

ويستدير جان ويقترب نحو ريباز :

– مر كرامز بأن يكف عن إطلاق النار .

– كلا .

– ماذا ؟

وقال ريباز :

– لن أفعل هذا . سوف يستولون على رأسي ولكن أريد أن يدفعوا ثمنه .

– إن الأشخاص الذين يقومون بالهجوم هم حراس البترول .

ويهز ريباز كتفيه ويسأل :

– وبعد ذلك ؟

– إنهم أفضل الناس . فلا يجب أن نقتلهم .

ولما لم يتحرك ريباز ، يغير جان لهجته :

– هذا أمر . هل فهمت ؟

ويظل ريباز قبالة جان ، ينظر إليه لحظة ، ثم يخفض رأسه ، دون أن يتحرك . ويذهب جـــان نحو زر الجرس المثبت فوق السرير ، ويرن قائلا لريباز :

– اذهب من هنا .

ويخرج ريباز ، في الوقت الذي يدخل فيه الخادم .

ويقول جان ، وهو يتطلع من خلال النافذة دون أن يستدير :

– اعطني ويسكي .

ويأتي الخادم بالويسكي بالكأس فيفرغه جان بجرعة واحدة ثم يأمر جان:

– اعطني بزة الحفلات .

ويذهب الخادم فيفتح المشجب . ويتطلع إليـــه جان بإهمال وهو يدير ظهره ويقول :

– لقد انتهى أمري . وأنا أخليك لخلفي .

الرَّدهة

أعيان الدولة عند النوافذ . والصمت مخيم . فجأة يتصاعد هتـاف قوي من تحت النوافذ ، ثم يخيم الصمت من جديد .

ويقول ريباز :

– لقد دخلوا .

ويفتح الباب في مكتب العمل ويظهر الخادم وينحني :

– سيادته يرجوكم أن تدخلوا .

مكتب العمل عند جان .

غرفة فسيحـة : مكتب كبير منضد مغطى بالكتب والملفـات . وعلى

طرف المكتب يُشاهد طبق عليه زجـاجة ويسكي وأنبوب وكؤوس . وفي الجدران رفوف تحمل كتباً وملفات . وفيها ديوان وكنبات . ويجلس جان وراء مكتبه ببزة الاحتفالات . ويدخل الأعيان إلى المكتب بخطى وجلة . ويقتربون من جان الذي يقف وينظر إليهم مقطباً حاجبيه قائلاً :

– إن النصف من بينكم خونة بحق . وسأحاول أن أحزر . وسأعلمكم بعد ربع ساعة إذا كنت مخطئاً .

ويقف الأعيان على شكل نصف دائري . وجان ينظر إليهم بإمعان وهو يتمشى أمامهم ببطء كما لو كان يستعرضهم :

– بالنسبة لك أنت ، أكيد . وبالنسبـــة لك أقل تأكيداً ، ولكنه ممكن .. وأنت بخلقتك .

ويمر جان أمام ريباز :

– أنت ، بالطبع ، لست خائناً .

والى جانب ريباز يقف داريو . ويبتسم له جـــان بلطف ويربت على كتفه . ويجيب داريو بابتسامة متشجنة قليلاً :

ويقول جان :

– أنت أيضاً لست خائناً بكل تأكيد . كنت أحبك كثيراً يا داريو .

ومن وراء الباب يسمع وقع الخطوات والصيحـات . ويعود جان إلى الوراء ويقف وراء مكتبه.ويفتح الباب فجأة لتظهر فرقة من الثوار المسلحين حول الباب . ويخرج ريباز مسدسه ويطلق النار، ويخرُ أحد الثوار صريعاً. ويسمع طلق آخر ، ويسقط ريبـاز بدوره . ويأتي جان سريعـاً ليقف بين أعيان الحكومة والثوار :

– فليمسك الجميع عن إطلاق النار . ادخلوا .

ويحصل بعض التدافع عند الباب . يدخل الناس المكتب . رجال ونساء

مسلحون بقمصانهم الممزقة ووجوههم الوسخة وأذرعهم العارية . ويتطلع جان نحو الجمهور الذي سكت ، ويبدو انه يتردد قليلا . أخذ أحد الأعيان يمشي على مهل ليلتحق بالجمهور الذي احتشد خلف جان . ويتبعه الآخرون واحداً واحداً متجنبين نظرات جان الذي يتطلع إليهم باسماً وهو يقول :

– الجميع ؟ إن هذا أفضل مما توقعت .

وكان داريو آخر من التحق بالجمهور .

وقال جان :

– وأنت أيضاً يا داريو ؟

ولم يجب داريو . فأضاف جان :

– كنت أظن انك تحبني .

وقال داريو بقساوة :

– نعم كنت أحبك . ولكن ما من جدوى ؟

وهز جان كتفيه دون ان يقول شيئاً .

الآن يواجه الجمهور وحده . وتمر فترة انزعاج . فلا يزال جان يوحي ببعض الخوف . وفجأة اندفع أحد الثوار إلى الأمام وصفع جان بكل قوته . وأجاب جان بضربة من قبضة يده على أمّ وجهه . وترنح العامل وشهر مسدسه في وجه جان . ويطرح بعض الثوار جان أرضاً . ويسمع في هذه اللحظة صوت يصيح : « توقفوا » .

فرانسوا وسوزان يدخلان المكتب . ويشق فرانسوا طريقه بين الجمهور ويأتي نحو جان صائحاً :

– توقفوا ! هذا الرجل سجين لدينا ، فليكف الجميع عن لمسه .

واستدار جان نحو فرانسوا . ويأخذ الرجلان بالتطلع نحو بعضهما . وإلى

جانب فرانسوا تقف سوزان التي تحدج جان بنظرات ملؤها الكره . ويبدو ان جان لا يراها . ويقول :

– ها أنت هنا يا فرانسوا . ظننت اني سألاقيك هنا. فقد فزت بغايتك.

ويتطلع فرانسوا إلى جان بفضول وقساوة ويقول :

– لم ينته كل شيء ، ولكننا أمسكنا بك . ويقول جان بلهجة الصديق :

– ليس قتل الرجل عسيراً . بل البائس هو العسير سترى ذلك بنفسك. إن آخر مرّة رأيتك فيها ، كانت منذ خمسة أعوام . لم تكن بعد قد تحولت إلى خصم لي .

وتتقدم سوزان . وتقول له بصوت ملؤه الغضب والتهديد :

– وأنا يا جان ؟ هل تذكر آخر مرة شاهدتني فيها ؟

ويتجاهلها جان تماماً . ويبقي نظره مثبتاً على فرانسوا ويتابع : وكنت أعرف أين كنت تختبىء . وكنت أستطيع توقيفك .

ويسأل فرانسوا :

– ولماذا لم تقدم على ذلك ؟

– كان ذلك يكلف دماً كثيراً . .

وتقول سوزان :

– ستكون أقل كرماً . ودمك لا يخيفنا . وسندفعك الثمن .

ويظل جان متجاهلاً إياها . وتتابع سوزان بغضب :

– هل تسمعني ؟ ألا تجرؤ على النظر إلي ؟ هل أخيفك ؟

ويستدير جان نحو الخادم ويقول :

– إيتني بالويسكي . ويظل الخادم واجماً ، وترتسم ابتسامة احتقار على شفتيه . ويذهب جان إلى مكتبه ، يصب لنفسه كأساً ويشرب . ولحقت سوزان به ساخطة لصمته واحتقاره .

– ألن تجيب أخيراً ؟ ألا تريد ؟ ألا تريد؟ سأريك بأني موجودة . خذا

وتبصق في وجه جان ، الذي لم يكترث لها ، حتى انـه لم يمسح وجهه .
ويشرب أيضاً ويسأل فرانسوا والكأس في يده : أخال انكم ستقتالونني ؟

– ستكون مسروراً . سيصار إلى محاكمتك .

– ومن سيحاكمني ؟

– ويشير فرانسوا بحركة دائرية .

– وبموجب أي قانون ؟

– بموجب قانوننا .

ويقول جان :

– سوف لا أدافع عن نفسي . ستقتالونني .

ثم يسأل بعد هنيهة :

– كم من الأموات لديكم ؟

وقال فرانسوا :

– كثيراً .

– مئتان ؟

– أكثر .

– هذا كثير كي تحوزوا على رأسي .

وصاحت سوزان :

– ستدفع لهم أيضاً !

وقال فرانسوا :

– ليس هذا كثيراً لتحطيم طغيانك القذر .

ويرفع جان كتفيه قليلاً وبعياء :

– ستكونون أكثر طغياناً مني. انك نظري جداً يا فرانسوا ، فستكون رهيباً .

كانت محكمة مرتجلة في صالة الأعياد التابعة للقصر . ولم يكن المشهد سوى منصة مرتفعة قليلاً عن القاعة ، عليها طاولتان ألصقتا معاً . ووراء هاتين الطاولتين ، بمواجهة الجمهور ، جلس عشرون شخصاً هم ست نساء وأربعة عشر رجلاً هي هيئة الحكام . والرجال من أصناف مختلفة جداً : ففيهم أربعة من الأعيان قد تعرّفنا عليهم قبلاً ، يرتدون بزاتهم وأوسمتهم وثمانية آخرون من العمال ببزات العمال أو بمراييل الجلد . وبدا الأخيران كاثنين من صغار البورجوازيين . وعلى الطاولة ألقى المحلفون الثوار بأسلحيتهم . وخلع أحد الأعيان سترته ذات الأوسمة وعلقها في ظهر كرسيه .

ويحتل الجمهور المقاعد المخصصة للنظارة ، ولكن عددها كبير ، ووقفت كميات من البشر أو جلست على الأرض بين الحواجز . وآخرون قد جلسوا على حافات النوافذ . وفي الصف الأول جلست سوزان وماغنان وداريو كشاهدين .

وعلى يمين المسرح ، تحت إحدى النوافذ ، يجلس جان على كرسي مديراً ظهره لهيئة المحكمة ليدل على انه لا يكترث بمحاكمته . وجلس عامل شاب على حافة إحدى النوافذ . وتدلت جزمته على الحائط لتصبح بمحاذاة عيني جان . كان نعل الجزمة ممزقاً وأخذ جان ينظر إلى رجل العامل الشاب وهي تتحرك في المكان الممزق . ثم ترتفع عيناه إلى وجه العامل الشاب الذي ينظر إليه ، بلا غضب ، بفضول كلي .

وفي أسفل المسرح ، أربعة ثوار مسلحين . وبين المسرح وصف المشاهدين الأول ، توجد فسحة فارغة . كان فرانسوا هناك واقفاً . يتكلم بتأثر ، متوجهاً تارة نحو هيئة المحكمة وتارة نحو القاعة .

– علينا أن نكون شديدي الرهبة ، أيها الرفاق ! أنتم تعرفون هذا

الرجل منذ خمسة عشر عاماً . لقد حاربتم معه قبل الثورة الأولى وحملتموه إلى الحكم، قبل سبعة أعوام ، لأنه كان يبدو لكم بمثابة الرجل الكفؤ لتحقيق الديمقراطية الاشتراكية التي نرغب فيها . لقد خان الثقة التي أوليناه إياها . واليوم ، نحاكمه ونطالبه بالحساب . وأنا سأوجه هذه المناقشات .

ويصفق الجمهور . ويصيح . وبإشارة يطلب فرانسوا الصمت . ثم يتجه نحو جان .

– اختر من يدافع عنك .

ولم يجب جان .

ويقول فرانسوا :

– ألم تسمع ؟

ويستدير جان قليلاً ويهز كتفيه . وتعود عيناه تتسمران على رجل العامل الشاب .

ويقول فرانسوا :

– هذا حسن ، سنعطيك مدافعاً تختاره المحكمة .

واستدار فرانسوا نحو القاعة ، وكأنه يبحث عن أحد . وتقع عيناه على ماتر وزير العدل ، الذي جلس في الصف الثاني بين المتفرجين ويجدّ في إخفاء قامته . ويمد فرانسوا يده إليه .

– أنت .

ويرتعد ماتر بهيئة شديدة القلق .

– ولكني .. أرى جميع أخطائه . أراها بوضوح ، ولن أتمكن من الدفاع عنه .

وقال فرانسوا بجلال :

– لقد كنت محامياً . ستدافع عنه . تعال .

ينهض ماتر وهو على أشد ما يكون من الانزعاج ويقـترب من المسرح ، ويفتح فاه ليحاول الاحتجاج ثانية . فيكرر فرانسوا :

– تعال !

ويقوم ماتر بحركة منصاعة ، ويأخذ مكانه في الفسحة الفارغة بين المسرح والجمهور ويقول :

– فليكن .. سندافع عن مذنب .

ويدير جان رأسه ، وينظر إلى ماتر ويقول بصوت رزين :

– هذا أقذر الجميع .

ويبدو ماتر مشمئزاً كالامرة العجوز ويدير ظهره،ثم يقترب من فرانسوا. ويسأل فرانسوا وهيئة المحكمة :

– بماذا تتهمونه ؟

ويصيح فرانسوا :

– أنت لا تعرف ذلك ؟

ثم استدار نحو الجمهور وقال .

– قولوا له ذلك !

وترتفع الجلبة بين الجمهور الذي يبدأ بالصياح . ويشعر المرء أن الحضور لا يترددون ثانية واحدة بالتهم التي لديهم ضد جان . وفي خضم الصخب ، ظهرت كلمات ثلاث . أولاً ، كلمة خيمت على سائر الكلمات :

– البترول . البترول .

والثانية هي :

– قاتل .

والثالثة :

– ديكتاتور !

ومن الصالة ، يقف رجل ويتسلق على كرسيه ويصيح :
– لقد استغل الثورة لصالحه . لقد استبدل قادة الحزب بأزلامه !

وينهض رجل آخر :
– لقد كمّ فم الصحافة . كما اغتال لوسيان دراليتش .

وينهض فلاح جلس في الصف الثاني ، رافعاً يديه المحروقتين المعوجتين :
– لقد أحرق ضيعتي .
وتصيح الفلاحة :
– لقد نفى زوجي .

ويعلو الصخب هنيهة في القـــاعة ويقوم فرانسوا بحركات كثيرة لتهدئة الحال . دون ان يتمكن من ذلك . وأخيراً ، ينهض عامل جلس في الصف الأول ، ويتجه نحو القاعة ، مادّاً ذراعيـــه صائحاً بكل قواه إلى حد انه أسكت الآخرين :
– كل هذا ، لا يهم ! فقذارته الكبرى ، انه باع حقول النفط للأجنبي .

ويحتج ماثر الذي لم يكن قد قال شيئاً حتى الآن ويقول غاضباً :
– ليس هذا صحيحاً ! ليس هذا صحيحاً !
ويسير العامل نحو ماثر وهو غاضب غضباً دموياً :
– أنت ، أيتها القذارة . .

ويوقف أحد الثوار ممن يحرسون عند طرف المسرح ، يوقف العامل .
ويقوم ماثر بإشارات طالباً أن يعيروه انتباههم ويقول :
– لم نبع شيئاً . انها الحكومة السابقة . انها حكومة الوصي هي التي باعت .

ويسأل العامل ماثر والحارس لا يزال ممسكاً به :
– ثم ، ماذا ؟

ويقول ماتر :

– إن الوصي هو الذي منح في سنة ١٨٩٨ ، ولمدة مئة وعشرين سنة ، جميع الحقول البترولية لشركة استخراج أجنبية . وحين وصلنا إلى الحكم ، كانت قد مرّت ثلاثون سنة على استغلال الرأسماليين الأجانب وامتلاكهم لبترولنا .

ويصيح العامل :

– قل أيها القذر . لماذا حملنا إلى الحكم ، سيدك ؟ ألكي يجمع اللآلىء ؟

ويتجه العامل نحو الجمهور ويسأل :

– ما هي ثروتنا الكبرى ، أيها الصبية ؟

وتجيب القاعة بصوت واحد :

– البترول !

– ومن قام بالثورة الأولى ؟ ومن ذا الذي قاتل لإيصال هذا الطاغية إلى الحكم ؟ من الذي صنعه ؟

ويجيب الجمهور على كل سؤال صائحاً :

– انهم أهل النفط ! انهم أهل النفط !

ويوجه العامل حديثه الآن إلى جان :

– هل تسمع ؟ حسناً ، ان أهل النفط هنا الآن يطلبون تأدية الحساب . لماذا لم تؤمم صناعة البترول كما كان يجب أن تفعل ؟ لماذا ساعدت أرباب الأعمال الأجانب في قهر حركات الاضراب ؟

ويلتفت العامل من جديد نحو الجمهور الذي يطلق صيحات الاستهجان : ويختم كلامه قائلاً :

– انه يستحق الموت ! له ولمحاميه أيضاً !

ويتقدم فرانسوا نحو الجمهور مرفوع اليدين ويصيح :

– السكوت !

ثم يقول للعامل :

– اذهب إلى مكانك .

ويذهب العامل ليجلس ثانية . ويلتفت فرانسوا إلى المحامي قائلاً :

– هـل فهمت . ثلاث تهم رئيسية . أولاً مسّ الحريات الأساسية . واغتيال لوسيان دراليتش ، مدير جريدة النـور . ثانياً : سياسة تصنيع الزراعة السابقة لأوانها ونفي الفلاحين المتمردين بالجملة . ثالثاً : التآمر مع الأجنبي حول قضية البترول . والإبقاء على العمال في حالة لا تطاق .

ويسأل المحامي :

– أين الشهود ؟

– الجميع هنا شهود . وما عليّ إلا أن اختارهم من هذه القاعة .

ويقول المحامي :

– وشهود الدفاع ؟

فيجيب فرانسوا :

– جدهم .

ولم يتحرك جان . فلا يزال يدير ظهره لهيئة المحكمة مثبتـاً ناظريه على جزمة العامل الشاب الجالس في النـافذة . يبدي بعض الاهتمام عندما سمع فرانسوا يعلن :

– كشاهد أول ، أذكر داريو .

وينهض داريو . ويقف أمام النظارة . يجلسونه جانبياً بالنسبة للقاعـة . يقف فرانسوا أمامه ويبدأ باستجوابه :

– ما هي المرتبة التي تحتلها بلادنا في صناعة البترول العالمية ؟

ويجيب داريو :

– المرتبة الثالثة . إنتاج بقيمة عشرين مليون ليرة .
– متى وكيف اشترت الشركة الأجنبية الامتياز ؟
– في سنة ١٨٩٨ . على دفعتين قدرهما خمسون مليون ليرة .
– وعندما وصل جان آغيرا إلى الحكم ، كان قد مضى وقت طويل على إنفاق الوصي لهذا المبلغ . وهكذا ، ففي كل سنة كان يقع في يد الأجنبي مبلغ عشرين مليون ليرة يجب أن تعود لنا، في حين كان عمالنا يموتون جوعاً.

ويقول داريو :
– عشرون مليوناً كنا بحاجة إليها لندفع المواد الغذائية التي يجب ان نستوردها .

ويوجه فرانسوا كلامه للحضور :
– إن نقص الانتاج الزراعي وافتقارنا للقطع الأجنبي ، هما سبب المجاعة منذ ثلاث سنين .
ثم يسأل داريو :
– وكيف سعى آغيرا لإصلاح الحال ؟

فيجيب داريو :
– بتصنيع الزراعة . جرارات ، أسمدة كيماوية ، استثمارات جماعية ، وضرائب على المحاصيل. كان الفلاحون يعارضون تدابيره . وقد أرسلني آغيرا مع لوسيان دراليتش لإجراء تحقيق في الأرياف ، وقد أبلغناه ..

شهادة داريو (عما مر قبل ثلاث سنوات)

مكتب جان في قصر الحكومة

جان يكتب في مكتبه . الخادم يدخل داريو ولوسيان دراليتش . يعبران الغرفة دون أن ينبسا بكلمة أمام مكتب جان . يحمل داريو ملفاً

ضخماً تحت إبطه . يلقي جان ريشته ويرفع رأسه .

– ماذا ؟

فيقول لوسيان :

– هذا مستحيل . فليس الفلاحون على استعداد .

يحافظ جان على وجهه الجاف . ويقول داريو :

– لقد قطعنا عشرة آلاف كيلومتر . وشاهدنا جميع القرى . وسألنا مئات الأشخاص . جان ، إن فلاحينا أكثر فلاحي أوروبا تأخراً .

ويقول جان :

– وبعد ذلك ؟

– سيحطمون الجرارات ، ويرمون بالأسمدة ! سيحرقون المحاصيل إن لم يشنقوا مهندسينا الزراعيين ، يلزمهم عشرون سنة من التربية والدعاية .

ويحمل جان على وجهه إمارات القلق والاعياء ويقول :

– التقرير ؟

ويعطيه داريو الملف من تحت ذراعه . يضعه جان على مكتبه دون أن يتطلع إليه .

– شكراً . سآخذ به بعين الاعتبار قدر الامكان .

ويتطلع داريو نحو جان بحرارة ضارعة .

– جان ، لن تستطيع . فليسوا على استعداد ، لن تستطيع .

ويقول جان :

– أعرفهم أكثر مما تعرفهم أنت يا داريو . فقد ولدت بينهم .

ويحاول داريو الاحتجاج . فيطرده جان بإشارة .

– أشكركما .

ويتردد داريو لحظة ، ثم يصادف نظره جان فيتجه نحو الباب . يتدخل

لوسيان الذي لم يتحرك ويقول :

– أنا سأبقى . لدي شيء أكلمك عنه يا جان. سوف لا تصرفني كخادم. اذهب يا داريو وانتظرني .

يخرج داريو .

الردهـــة

يجلس داريو إلى الطاولة ، ينتظر . يسمع الصياح وراء باب مكتب جان. ينهض ، يذهب إلى النافذة ويتطلع إلى الشارع مكفهراً . يسمع في المكتب صيحات أقوى . ثم يخرج لوسيان فجأة ، خـــارجاً عن طوره ويتجه إلى جان قائلاً :

– تعال يا داريو . انه طاغية : لم يعد يصغي إلى أحد .

المحكمـــة

يتابع داريو شهادته . يكرر على مسامع الهيئة الجملة التي قالها لوسيان قبل ثلاث سنوات .

– كان قد أصبح طاغية . لم يكن يستمع إلى أحـــد . ومع ذلك حقق مشروعه . وحصل ما توقعنـــاه له . ثار الفلاحون في كل مكان . وحطموا الجرارات الأولى . وتدخلت الشرطة ومن بعدها الجيش . ولم يكن آغـيرا ليريد التراجع وكان القمع رهيباً ، وبالمجموع تم مسح خمس عشرة قرية ، ونفي سبعة عشر ألفاً . كما مات مئة وسبعة وعشرون شخصاً .

ويعلو الهمس في القاعة . وفي الصف الثاني ، ينهض الفـــلاح ذو اليدين المحروقتين صائحاً :

– حتى انه أحرقماينك ، التي كانت قريته . وأنا من مـــاينك أيضاً .

لقد عرفته صغيراً . كان ولداً سيئاً منذ ذلك الوقت ...

ويحاول المحامي أن يتدخل :

– أنا أحتج !..

ويقاطعه الفلاح متابعاً :

– قبل الحادث الذي وقع له ، حين كسر ذراعه ، كان يريد دائماً أن يأمر . بعد ذلك تم التغاضي عنه . كان يكره الجميع ، بسبب ذراعه . كان يلقب « بالمعوج » . وقد أقسم على الانتقام .

وتقدم الفـــلاح إلى وسط الممر . ومدّ نحو الهيئة يديه اللتين شوهتهما النيران وقد فقد من إحداهما اصبعان .

– انظروا ! لقد وفق تماماً . كنت في ماينك حين أضرم فيها النيران .

ويصيح المحامي بأعلى نبراته ليسيطر على جلبة الجمهور :

– أنا أحتج . وأطلب إلى الهيئة أن ترد أقوال الشاهد . نحن هنا لنحكم على أعمال جان آغيرا السياسية ، لا لنسمع ثرثرة العجائز . من منكم يجرؤ على القول بأن آغيرا أمر بإحراق خمس عشرة قرية لإرضاء حقده الشخصي ؟

وتنهض سوزان فجأة وتصيح في وجه المحامي :

– ولم لا ؟ هل تعرف فقط من هو ؟ أنت لا تعرفه بل كنت تزحف أمامه .

ثم تخاطب الهيئة :

– ذراعه ، كانت تعني حقده وبؤسه وعاره . أنا أعرف ذلك. أنا أعرف آغيرا . ظللت عشيقة له طيلة عشر سنوات ، بل مرضعة له .

شهادة سوزان (عما مر قبل تسع سنوات)

غرفة الطعام عند سوزان وجان

حجرة صغيرة فقيرة . جلس جان إلى طاولة مغطاة بنسيج مشمع . كان صامتاً مكفهراً . وسوزان الواقفة إلى جانبه تقطع له اللحم في الصحن .

سوزان تدفع الصحن أمام جان الذي لم يقل حتى شكراً ، ويبدأ بتناول قطع اللحم بشوكته وبيده اليسرى . وتصب سوزان الخمر في كأس جان الذي نظر إليه بتشوق . ظل مصراً على سكوته ، عيناه مثبتتان في الصحن.

ويسمع صوت سوزان تخاطب الهيئة : « كان بحاجة لمربية .... وذات يوم ... »

جان وسوزان اللذان يسيران في أحد الشوارع ، يفترقان . يركض جان وراء الحافلة التي أقلعت منذ لحظة . يحاول ان يصل إليها وهي تسير ، ولكن بسبب ذراعه الوحيـــدة ، لم يصل إلى ذلك وتدحرج على الأرض . وتندفع سوزان نحوه . ويأتي رجلان إلى جانب جان يريدان أن يساعداه في النهوض. جان يدفعهما مذعوراً . قائلا بنوع من الغلاظة :

– كل شيء على ما يرام . شكراً .

ولما وقف ، مسح الغبار الذي علق ببذلته . كانت سوزان تنظر إليـــه بقلق . وقد بدا ان الرجلين اللذين أسرعا للمساعدة قد بغتا من اللهجـة التي وجهها جان إليهما . وقال أحدهما للآخر ، بصوت مرتفع كي يسمع جان :

– كيف تأتي فكرة البهلوان لمن هو عاجز .

جان يأخذ سوزان بذراعها ويقتادها بسرعة ووجهه مكفهر .

تقدمت سوزان وهي تتكلم نحو المنصة وختمت حديثها قائلة :
– كان يحتقر جميع الناس ممن لهم ذراعان اثنتان .
فأجاب المحامي :
– هذا ممكن . ولكنا هنا بصدد محاكمة الفعل لا الرجل .
فأردفت سوزان :
– وأنا أطلب إليكم أيها الرفاق ان تحاكموا الرجل . فلأنه كان أبتر أراد الاستئثار بالسلطة . ولأنه أبتر أراد النساء . ولأنه أبتر كان يكره البشر ويريق الدماء .

ويعترض المحامي بعنف :
– أصر على الاعتراض .

وحدجته سوزان بنظرة خبيثة باردة مما جعله يتراجع خطوة إلى الوراء .
– احترس على نفسك . أنت .
وتمر لحظة من الصمت المطبق ، ويتجه فرانسوا إلى الهيئة :
– عليكم ان تقرروا .

وينهض داريو مخاطباً الهيئة :
– ليس باستطاعتكم أيها الرفاق .

فتقول سوزان :
– أنت . أنت يا داريو تدافع عنه ؟
– أنا لا أدافع عنه . ولكن إذا تابعتم هكذا ، تجعلون أنفسكم مضحكين بغيضين ، كما تعطونه الحق : إذ لا يكون هذا حكماً بل اغتيالاً .

ويتدخل ماغنان دون ان يغادر مكانه :
– كفى مشاكل يا داريو . إن الذي تحاكمونه ، هو رجل، رجل أحببناه

وحملناه إلى السلطة . رجل كذب علينا وخاننا .

وتتناقش هيئة المحلفين بصوت خافت وينهض بعض المحلفين ليمضوا إلى آخرين يحدثونهم . ثم يعود الجميع إلى أمكنتهم فيسأل فرانسوا :

– ماذا قررتم ؟

وتقف امرأة محلفة لتعلن :

– سنحاكم الرجل وفعلته .

فيقول فرانسوا :

– حسناً ولكن هذا سيبقى طويلاً .

فتجيب الامرأة :

– لدينا الوقت لذلك .

وتلقي سوزان نظرة انتصار على المحامي ، ثم تتجه نحو الهيئة قائلة :

– حسناً حسناً ! لقد فهمتم . أنتم أناس تودون محاكمة رجل على مجمل حياته . وعلينا أن نعرف الأمور التي سنتناولها . ستقررون الآن إذا كانت أعمال النفي التي قام بها ضرورة أم جريمة . ولكن هناك شيئاً بامكاننا السعي لمعرفته في الحال : ما كان يفعل عندما كان الجنود يحرقون القرى وينهبونها ؟

ويصل صوت من النظارة :

– أعرف ذلك ، أنا !

وتستدير سوزان فترى خادم جانِ الخاص ينهض من مكانه في وسط القاعة . وثبتت جميع الأنظار على الخادم الذي أضاف :

– كان يضحك . كان سكران يضحك .

وتبتسم سوزان ابتسامة انتصار جافة :

– كنت متأكدة من ذلك !

وتعود إلى مكانها ، راضية بينما يشير فرانسوا للخادم قائلاً له :

– تقدم !

ويتقدم الخادم ليأخذ مكانه بين فرانسوا وجان . فيسأله فرانسوا :

– ما اسمك ؟

– كارلو بومبياني . كنت خادم سعادة جان آغيرا . قبل ذلك ، كنت خادم كريفللي رئيس الوزراء .

ويومىء الخادم إلى جان متابعاً :

– عندما تولى هذا الحكم ، أتى ليقيم في شقة كريفللي حيث وجدني فيها.

شهادة الخادم (عما قبل سبع سنوات)
قصر الحكومة

صف طويل من الحجرات بأبوابها المفتوحة ونوافذ الزجاج المكسرة . جان موجود في الحجرة الأولى التي تشكل ردهة الدخول في القصر . كان يرتدي لباساً بورجوازياً ، ولكن غير معتنى بها ، كعامل في يوم عيد. كانت سترته السوداء تشده لضيقها ، كان يضع ربطة عنق معقودة سلفاً ، وقميصاً مخططاً وينتعل حذاء ضخماً . وقبعته الرخوة متهدلة قديمة الطراز .

بعض الأصدقاء يحيطون بجان ، يطردهم بإشارة ، ثم يتمشى من غرفة لغرفة في القصر المقفر ، إلى أن يصل إلى المكتب الكبير الذي نعرفه ، وكان في هذه الحقبة ، فخم الأثاث . ويقترب جان من خزانة صغيرة تحمل تحفاً فنية وآنية صينية . يتناول تمثالاً صغيراً يتفحصه برهة ويعيده باحترام . ويسير بضع خطوات في المكتب مزعوجاً وكأنه متضايق من نفسه . على لوحة معلقة في الحائط ، صورة امرأة بالغة الاناقة يبدو أنها تتبعه بناظريها . يسير جان بضع خطوات مديراً لها ظهره . ثم يثبت عينيه على اللوحة ، من جديد .

ومن فرجة الباب ، يبدو الخادم جامد الحركة مستمراً يراقب جان بوجه

غير معبر . يلقي جان عجزه قليلاً إلى طاولة صغـــيرة ، ثم يعود فينهض ، ويعيد النظرة في صورة الامرأة ، ثم ينظر إلى صورة الجنرال العجوز ببزته الرسمية وقد علقت إلى جانب الصورة الأولى . ويخلع قبعته آلياً ويحملهـــا بيده ويدرك انه قد خلعها ، فيغضب من حركته الخجلة تلك ، فيرمي بالقبعة بعيداً فوق المكتب . فتنقلب دواة تلوث الطاولة . ويسرع جان ، غير أن الخـادم يسبقه وبيده ممسحة يتشرب بها الحبر بعناية . ويقفز جـان مذعوراً عند رؤيته . وينظر إليه سائلاً :

– ماذا تفعل هنا ؟

– كنت خادم سيا .. رئيس الوزراء السابق .

وتمر برهة صمت ، وجان يراقب الخادم الذي أنهى امتصاص الحبر بحركات دقيقة مجربة فيقول له :

– سأحتفظ بك .

ثم يشير إلى اللوحتين ويضيف :

– انزع هاتين اللوحتين .

المحكـــة

الخادم يتابع شهادته أمام الهيئة :

– لم أكن أتركه أبداً . لم يعرف اني كنت معه . لم يرني أكثر من قطعة أثاث ظللت وراءه طيلة سبع سنوات كظله .. كنت ألبسه ثيابه .

شهادة الخادم (عن مرحلة تمتد سنوات عديدة)

غرفة جان في القصر

جان بالقميص ، فتمتد إليه يدان تلبسانه الصدرية .

جان بالقميص ، ويدان تمدّان إليه سترة يرتديها .
جان بالقميص ، ويدان تمدان إليه ثوب ضابط فيرتديه .
جان بالقميص ، ويدان تمدان إليه ثوب ضابط موشى بالأوسمة .

في نفس الوقت ، يسمع صوت خادم الغرفة معلقاً :
– لم أغادره طيلة سبع سنوات . كان في البدء يشرب فنجانين من القهوة في الساعة .

جان يجلس إلى مكتبه ، يكتب . ويقول بدون أن يرفع رأسه :
– قهوة .

وراءه الخادم لا تمكن رؤيته . وبدون أن يلمسه أحد يرتفع ابريق القهوة ويصب بمفرده القهوة في فنجان يأتي بمفرده ليلقي بنفسه أمام جان .
ويقول جان بلا انتباه :
– شكراً .

ويشرب قهوته .
ويسمع صوت الخادم في الوقت الذي يشرب فيه جان قهوته :
– وفي السنتين الأخيرتين كانت ...
فيقول جان :
– الويسكي !

جان جالس إلى مكتبه . وجهه مكفهر ويداه أكثر تردداً .

وراءه زجاجة ويسكي تملأ بمفردها كأساً يأتي بمفرده ليلقي بنفسه أمام جان ، فيفرغه بجرعة ، في حين يسمع الخادم يقول :
– لم يكن ليقول لي حتى شكراً . لم أكن موجوداً . مرة واحدة بدا وكأنه يراني .

كان يأكل في مكتبه وهو يعمل في أحد الملحقات . ويتوقف فجأة

عن العمل ويبعد عنه صحنه ويجول بنظره في الحجرة ، كما لو كان يبحث عن فكرة . ويقع نظر جـان على الصحن الملقى إلى اليسار ، في الوقت الذي يرتفع فيه وحده في الهواء وكأن يداً غير مرئيـة قد التقطته . ويقع نظر جـان على الخادم فجأة ، وكان ينزع الصحن ليضعه في مكانه . يبدو انه مزعوج من الطريقة غير المعتادة التي يتطلع بها جان إليه . ويقول جان بهيئة مبغوتة حالمة :

– ها اني أراك . . وأنت قوي مع ذلك . بحق الشيطان لماذا اخترت أن تكون خادماً ؟ انها أحط المهن .

قالها جان وكأنه يحدث نفسه . ولم يكد ينتهي حتى أدار رأسه وتابع تأملاته وهو يقلب الملف الذي بين يديه . كان الخادم ينظر إليه بعين ماؤها الكره والصحن في يده . وبدون أن يرفع رأسه طلب جان فجأة :

– ويسكي !

واختفى الخادم في الحال . وأتى الصحن بمفرده يلقي بنفسه على الطبق إلى جانب زجاجة ويسكي تملأ بمفردها كأساً يلقي بنفسه على مكتب جان .

المحكمـة

الخادم ، أمام الهيئة ، يتابع شهادته ، يلقي نظرة وجلة على رقبة جان الذي لا يزال مديراً ظهره للهيئة ويتابع :

– كان هناك غير الكحول. كانت هناك النساء. كل يوم واحدة،تقريباً. .

ويقوم فرانسوا بحركة انزعاج . يريد ان يسكت الخادم ويبدأ :

– لا أصدق !

غير ان الضحك الذي ضج في القاعة يخيم على صوته . وقبل أن يستطيع تناول الحديث ، نهضت امرأة من المحلفين تسأل .

– امرأة كل يوم ؟ كيف كان يأتي بهن ؟

فيتدخل المحامي بحدة :
- لا شأن لهذا ..
فتقول الامرأة المحلفة :
- دعوا الشاهد يتكلم .
ويهز فرانسوا كتفيه برضوخ ، ويومىء إلى الخادم :
- تابع .
- كان يتلقى من مئة إلى مئة وخمسين رسالة غرامية في الأسبوع . ويعمد إلى الترتيب فيفض الرسائل ويبدأ ..

شهادة الخادم (طيلة سنوات عديدة)

(كل هذا القسم من الشهادة قدم بنفس الجفاف والسرعة التي يقدم بها تقرير عن تنظيم البرق والبريد) .

مكتب صغير في القصر

أحد المستخدمين يجلس إلى طاولة مغطاة برزم الرسائل . المستخدم يفتح الرسائل بواسطة مقطع الورق ، يرى التوقيع ، يسجل اسمه على دفتر ويرتب الرسائل في خزانة على كل رف من رفوفها رسالة كما في مركز البريد .
ويرتفع صوت الخادم معلقاً :
- بعد ذلك ، يأتي تحقيق الشرطة .

احد الشوارع

امرأة تخرج من إحدى البنايات . يتبعها شرطي باللباس المدني . تدخل

المرأة أحد المخازن . يقف الشرطي أمام المخزن ويسجل بعض الملاحظات على دفتر صغير . على إحدى صفحات الدفتر ، كتب اسم بأحرف كبيرة : اسم رنيه كاراس . وتحت الاسم كتبت عناوين مختلفة : الآراء السياسية ، العلاقات الشخصية ، العلاقات العادية .

ويصيح الخادم معلقاً :

– تقديم الصور .

مكتب جان

جان يجلس إلى الطاولة . ووراءه الخادم يقدم له ثلاث صور لامرأة واحدة: الصورة الأولى بفستان أسود والثانية بلباس الخروج والثالثة بالمايوه. يتفرج جان على الصور بهيئة كئيبة ثم يعطي إشارة مبهمة بالموافقة .

ويعلق صوت الخادم :

– إذا تمت الموافقة على الامرأة ، يصار إلى الفحص الطبي .

عيادة أحد الأطباء

المرأة التي رأينا صورها ، يفحصها أحد الأطباء بقميصه الأبيض .

ويعلق صوت الخادم :

– وأخيراً ، يتم تعيين الموعد .

مكتب جان

يجلس إلى طاولته . على طاولة أخرى أصغر هذه المرة ، وإلى يمين طاولة جان جلست هيلين تضرب على الآلة الكاتبة . يدخل الخادم إلى الغرفة .

ينحني أمام جان الذي ينكبّ على العمل ويقدم له بطاقة دعوة . ينظر جان إلى الاسم « رنيه كاراس » . ينهض ، يلقي نظرة فزعة إلى هيلين التي يبدو عليها الانزعاج والغضب، ويخرج من المكتب ليدخل في حجرة صغيرة مجاورة مجهزة بديوان كبير وبكنبتين وطاولة .

ويفتح باب الغرفة الثانية ويدخل الخادم رنيه كاراس إلى الغرفة وعليها إمارات الخوف والتحدي .

ويغلق الخادم الباب ثانية وينظر إلى ساعة حائط تشير إلى الساعة الخامسة .

الساعة ذاتها تشير إلى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين. يستدير الخادم الذي ينظر من نافذة الردهة عندما يسمع صرير الباب يفتح . ويظهر جان كما كان إلا أن شعره قد تبعثر قليلاً . ويقترب الخادم منه دون ان ينطق بكلمة ، ويخرج مشطاً من جيبه ليمشط جان قليلا .

يعود جان الى مكتبه، يلقي نظرة أخرى على هيلين ، نظرة حذرة باهتة مضطربة ثم يبدأ العمل من جديد .

المحكمة

يتابع الخادم شهادته :

– نحو خمس نساء في الأسبوع . لكل منهن نصف ساعة .

يهز المحامي يده غاضباً وهو يهتف :

– ان المحكمة تسيء إلى هيبتها وهي تصغي إلى ثرثرات رسمية . نحن لا نقبل ...

تقاطعه سوزان :

– على المحكمة ان تعرف الشخص الماثل أمامها .

فيقول الخادم :

– أعرف أيضاً قصصاً عنه كثيرة .

ويقول فرانسوا :

– أجلها إلى ما بعد واخبرنا أولاً ما كان يفعله عندما أعلنت على مسامعه نتائج القمع في القرى المتمردة .

تسمع قهقهة قوية من جان في نفس الوقت الذي كان يقدم الخادم أجوبته.

– لقد أخبرتكم بذلك . كان عند شولشر ملك البترول ، الأجنبي الذي استولى على أملاكنا ، والذي استغل العمال . كانا يتناولان طعام الغداء معاً . كانت حفلة ماجنة . وأتى أحد الضباط يخبره بأن الأوامر قد تم تنفيذها ، ولم يقل شيئاً في الحال،ولكن بعد مضي عشر دقائق بدأ بالضحك كالمجنون..

شهادة الخادم (عما قبل ثلاث سنوات)
في قاعة الاستقبال عند شولشر

شولشر هو مدير الشركة الأجنبية التي تستغل آبار البترول . هو رجل فارع الطول قوي البنية قاسي الوجه .

يجلس جان بمواجهة شولشر إلى طاولة كبيرة جلس إليها نحو عشرين رجلاً وامرأة . الطاولة زاخرة بألوان الطعام والقناني والأواني الفضية والكؤوس الفاخرة . الجميع يقهقهون ضحكات ثملة . النساء شبه عاريات . انه جو ماجن .

ورغم القهقهات الكبيرة ، يسمع انفجاران .

المحكمة

ينصت الخادم الماثل أمام الهيئة بكلتا أذنيه وعليه إمارات القلق . يسمع

انفجار آخر على مسافة أقرب . فيسأل الخادم :

– ما هذا ؟

في القاعة . نهض الناس وتراكضوا إلى النوافـذ يتطلعون . ومن الشارع حيث يقتتلون تصل انفجارات أخرى من قنابل يدوية وطلقات نارية .

ويفتح باب قاعة المحكمة فجأة . ويظهر اثنان من الثوار المسلحين . يصيح أحدهما باتجاه المنصة :

– انها كتيبة قلعة كيروب .

ويسأل فرانسوا :

– حسناً ، ماذا ؟

فيقول الثائر :

– لقد نجحت في الخروج . وهي تحتل ساحة الشعب والأحياء الغربية . ويبدو انهم يريدون مهاجمة القصر .

ينظر المحامي مبتسماً إلى الخادم الذي خرج عن طوره .

ويسأل فرانسوا :

– هل لورافتز وشاتران في مراكزهما ؟

فيجيب الثائر :

– نعم .

– حسناً . بإمكانكما أن تذهبا .

ويخرج الثـــائران . ينظر المحلفون إلى فرانسوا وعليهم إمارات الجد والقلق متسائلين : جان ، الذي استدار قليلاً نحو الصالة ، ظل بلا اكتراث.

وقال فرانسوا :

– فلنتابـع .

وتقدم المحامي ، الذي اقترب من الخادم ، خطوة نحو فرانسوا :

– أود استجواب الشاهد .

فيقول فرانسوا :

– هيّا .

ويعود المحامي ليقف أمام الخادم ويتطلع إلى عينيه .

ويستمر ضجيج المعركة في الشارع ، بات الآن واضحاً ان الاقتتال يجري تحت نوافذ القصر تقريباً .

فيسأله المحامي :

– أنت خائف ! أتعرف ما سيحدث لك عندما يستعيد رجالنا المدينة . إذا كانت شهادتك مغلوطة ؟ هل تصرّ عليها ؟

ويتمتم الوصيف :

– أنا ..

فيقول المحامي :

– أنت تصر عليها؟ حسناً. فلنبدأ بالترتيب . كان يضحك أليس كذلك؟

وتصاعدت من الشارع ضجة قريبة من الرشاش .

ويتطلع الخادم إلى النافذة ، ثم نحو الهيئة وقال بصوت ملؤه التردد :

– أعني . . .

شهادة الخادم (عما قبل ثلاث سنوات)

في قاعة الاستقبال عند شولشر

الديكور هو نفسه ، نفس الأشخاص يجلسون إلى الطاولة مع جـــان وشولشر . الطاولة زاخرة بألوان الطعام أيضاً ، والأشخــاص مهملون كما في مشهد الحفلة الماجنة التي تحدث عنها الخادم ، لكنها حفلة مجون صامتة . جان فمه مفتوح ، وكأنه يضحك ، ولكن ما من صوت ينبعث من فيه .

– كلا . كلا أبداً . كانت حفلة غداء قصد العمل .

وتختفي النساء . وتتضاءل الطاولة . وينقص عدد الأطباق والقناني نقصاً ملحوظاً ، ولم يبقَ سوى جان وشولشر وبعض الرجال الذين يتناولون الغداء على مهل . والجميع يكسوهم الهم .

المحكمــــة

المحامي كاتماً انتصاره ، ينحني فوق الخادم المتضايق

– ضحكة ليست بضحكة ، مجون ليس بمجون . أتهزأ بالحكمة ؟ حدثنا عمّا حصل منذ البداية . عن أي يوم تتكلم ؟

شهادة الخادم (عما مر قبل ثلاث سنوات)

أحد الشوارع

تمر سيارة طويلة بيضاء بصفّاراتها القويّة تجتاز الشوارع. وراءها وأمامها ثلاث سيارات أخرى ورجال على الدراجات النارية بألبسة رسمية .

في السيارة الكبيرة البيضاء

يجلس داريو وجان جنباً إلى جنب . ويجلس الخـــادم على الرفراف . ويقول داريو :

– رفض شولشر زيادة الأجور . هناك بوادر إضراب .

فيقول جان :

– أي ، من أجل هذا ..

– كيف ؟
– الغداء من أجل هذا. أراهنك على اني أعرف ما سيطلب إليّ شولشر.

مصنع شولشر

تتوقف السيارة البيضاء أمام بوابة المصنع . جمهور صغير بحراسة قوى الأمن المشددة يحتشد عند البوابة . يترجل جان وداريو من السيارة ، يلحق بهما الخادم . تتصاعد من الجمهور صيحات بغير حماس :
– عاش آغيرا ! عاش آغيرا !

وواضح ان الهتاف صادر عن فرقة الهاتفين ، لأن الجمهور لم يتحرك . ولدى سماعه هذه الصيحات رفع جان كتفيه واستدار نحو داريو :
– هذا مضحك . قل لمغنان اني أفضّل السكوت .

يدخل جان وداريو يتبعهما الخادم دائماً إلى باحة المصنع الكبرى . ينزل شولشر درج البناء الرئيسي الواقع بمواجهة بوابة الدخول ويأتي للقائهما . يجد وجهه القاسي بالابتسام لهما بتحبب ، إلا ان التهديد والكره قد ظهرا وراء كل بسمة من بسماته .

ويسيج بعض العمال بأجسامهم من البوابة حتى الدرج ، ينظرون إلى جان دون ان يبدوا أية حركة وهم واجمين حزانى . جو ثقيل من الكراهية . ويصل شولشر أمام جان وينحني له :
– صاحب السيادة ، انني ومعاونيّ ، سعيدون جداً باستقبالكم في هذا المكان .

ويشد جان على يد شولشر . ثم يسير الجميع نحو المبنى المركزي . وبينما كان جان يصعد درجات السلم ، ارتفع صوت من الجمهور :
– اغيرا الذي باع نفسه !

ويتوقف جان دون ان يستدير. شولشر يتطلع إليه بظل ابتسامة ويقول:
– أرأيت ، انهم لا يحبون أحداً . لا أنت ولا أنا . سأ ...
ويوقفه جان بحركة ويتابع السير .
– دع عنك ذلك . فلا أهمية .

ويصرخ الصوت من جديد :
– إلى الموت ، آغيرا الذي باع نفسه !

ويرفع جان كتفيه بدون ان يتوقف ويدخل إلى المصنع .

داخل المصنع

عدد من الشخصيات الرسمية والمهندسين في المصنع يراقبون منشئات المختبر . لقد قاموا بزيارة المصنع وانتهت الزيارة . وعلى بعد خطوات من الجمهور يشاهد شولشر وجان منعزلين . ويقول شولشر :
– أرأيت حالتهم النفسية . سيتم الإضراب بعد ثمانية أيام . لن أمنحهم الزيادة .
– ما هذه الحجج . إن ما يريدونه هو إثارة الاضطراب وخلق جو ثوري في سبيل الضغط علينا .

ولا يبدو التأثر على جان . ويتابع شولشر بدون أن ينفك عن التطلع إليه :
– أطلب إليك أن تجدد لي الضمانة بأنك مهما حصل لن تفعل شيئاً في سبيل السعي لنزع الامتياز منا .
ويقول جان :
– لن أجرب أبداً . بل أؤكد لك .
– وإذا كان الاضراب قوياً .. وقوياً جداً فهل أستطيع أن أطلب

إليك مساهمة القوى المسلحة ؟

– كلا ان كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أقف موقف الحكم من الخلاف.

فيقول شولشر :

– خذ حذرك . فقد تذهب الأمور إلى أبعد مما تتصوره .

– إذا أرسلت فرقة لتفريق الاضراب ، فسأحفر هوّة بيني وبين عمال البلاد . وسيتم القضاء عليّ في سنتين أو ثلاث سنوات .

ويتطلع إليه شولشر مهدداً :

– أهذه كلمتك الأخيرة ؟

– نعم .

ويقول شولشر :

– إن بلادك صغيرة جداً يا صاحب السيادة ، وبلدي كبير جداً .

ثم يبتسم فجأة ويقول بلهجة ودية :

– فلنذهب لتناول الغداء .

الحكمة

المحامي يخاطب الخادم بلهجة مهددة :

– لا تحاول إغراق السمكة . طلبت إليك أن تقول لي إذا كان آغيرا قد ضحك لما بلغه نبأ قمع ثورة الفلاحين .

فيقول الخادم :

– سأصل إلى هذه النقطة .

شهادة الوصيف (عما مر قبل ثلاث سنوات)

قاعة الاستقبال عند شولشر

هي القاعة التي عرفناها آنفاً ، ليس هنـاك سوى رجال جالسين إلى الطاولة ، ضباطاً ومهندسين . الجو مصطنع متوتر . جان يأكل بدون أن ينبس بكلمة .

يدخل أحد الضباط . يتقدم نحو جان وينحني فوقه . يتحدث الرجـلان بصوت خافت . الضيوف الآخرون يتحدثون فيما بينهم وهم يراقبون ويسأل جان :

— وبعد ذلك ؟

فيجيب الضابط :

— انتهى كل شيء .
— هل تم الأمر بقسأوة ؟
— لقد قاوموا . فاضطررنا . .

يقاطعه جان بلجاجة :
— بقساوة كلية ؟
— عشر قرى دمرت . وأوقف سبعة عشر ألف شخص .

فيقول جان :
— حسناً سأراك في الحال .

وينسحب الضابط . يبقى جان غير آبه ، إلا انه يكف عن الطعـام . يتطلع بانتباه إلى الجدار المواجه له من فوق رأس شولشر . ويتبع شولشر نظر جان . على الحائط علقت مجموعة من الأسلحة القديمة ، بينها غدارة ضخمة .

ويسأل شولشر :

– هل تحب الأسلحة القديمة يا صاحب السيادة ؟ لدي منها أسلحة جميلة جـــداً .

ينهض شولشر عن الطاولة ، يذهب إلى الحائط وينتزع بعد جهد الغدارة الضخمة ويمسكها بكلتا يديه . وبينما هو يجلس ثانية ، غمز أحـــد المهندسين فكتم ابتسامة .

وقال شولشر :

– انظر كيف انها مرصعة بالعاج عند القبضة .

ومن فوق الطاولة ، وبطرف ذراعيه يناول الغدارة لجان . ويمد جان يده اليسرى لتناولها فيقول شولشر متظاهراً بالبلاهة :

– بيديك الاثنتين يا صاحب السيادة ، فهي ثقيلة بشكل مخيف .

ثم أضاف مسرعاً ، وكأنه فهم خطأه في الحال :

– أوه ، عفواً .. خذها إذاً يا داريو .

ويقول جان بجلال وقد تملكه الغيظ .

– إبق في مكانك يا داريو .

ثم يمد يده قائلاً :

– هات .

يعطيه شولشر الغدارة . يأخذها جان بيد واحدة ، بمجهود هائل . يأتي بها إليه ويتفحصها على مهل . وقال :

– الحق معك ، انها فظيعة .

ثم يناولها لشولشر من فوق الطاولة .

– انها أخف وزناً مما تقول ، ويد واحدة تكفي يا شولشر . أجـل يد واحدة ، يد واحدة !

ويرفع شولشر ذراعه ، ويلتقط الغدارة فتقع منه وتسقط على الطـاولة

كاسرة الكؤوس والقناني والآنية .

تمر لحظة من الدهشة والحرج . وحده جـــان ينقلب عن كرسيه ويأخذ بالضحك بعصبية وبلا توقف . وفي نفس الوقت الذي كان يضحك فيه جان ، كانت تسمع من بعيد رشقات الرشاش وصوت الخادم :
– لهذا كان يضحك .

المحكمـــة

يبدو ان المحاكمة قد علـّقت للحظة ، فقد بقي الجمهور والمحلفون والمحامون والشهود في أمكنتهم ، لكن الجميع يتربصون الصمت . أصوات المعركة التي يبدو انها تبتعد .

وتتضاءل الضجة باستمرار ، وتنقطع . من جديد ، ينطلق عيار ناري ، ثم يليه الصمت . أثناء فترة الصمت يفتح الباب فيشاهد نفس الثائر الذي أتى قبل قليل بالأخبار . ليعلن :
– انهم يتراجعون نحو القلعة . ويصار إلى اللحاق بهم .
فيقول فرانسوا :
– حسناً .
وتسمع الهمهمات في القاعة . ويعيد فرانسوا الصمت بحركة ويقول :
– فلنتابع .

ويتطلع المحامي منهمكاً فيمن حوله بهيئة شاردة وهو يهز رأسه .
– لم أعد أستطيع . لم أعد أستطيع الدفاع عن رجل لا يتكلم ويهزأ بمحاميه . اتركوني ! اني أعرض نفسي للخطأ في سبيله وهو يسخر مني . انني معكم . أقول إنني معكم ضده .
فيقول فرانسوا :

– بل ستدافع عنه . ستدافع عنه أو انك ستندم .

وينهض داريو فجأة ، كمن كافح كثيراً ضد نفسه دون ان يلوي على شيء، وقال :

– معه حق . إن هذه المحاكمة بغيضة ، انكم تغتالونه !

هتافات مختلفة بين النظارة . وتقول امرأة من المحلفين بحدّة :

– هل هذا ذنبنا إذا كان لا يريد الدفاع عن نفسه ؟

ويتابع داريو :

– هذا عار . أمن أجل هذا اقتتلنا ؟ لنصغي إلى ثرثرات الخادم ؟ إن المسائل التي يجب أن نناقشها ذات أهمية كبرى ! هل كان من الواجب تصنيع الزراعة في الفترة التي أقدم فيها على ذلك ؟ هل كان بإمكانه انتزاع ملكية شولشر وتأميم البترول ؟ وبدلاً عن هذا أرانا نخرج بمهزلة عن ذراع مكسور ومركب نقص . وهو وحده الذي يستطيع الدفاع عن قضيته أراه يلتزم الصمت .

وتسكت القاعة . ويسكت المحلفون .

لقد أثر خطاب داريو في الجميع . ويتقدم داريو نحو جان الذي لا يستدير ويكلمه من الخلف !

– جان ! أتوسل إليك .. من أجل نفسك . من أجل ذكراك دافع عن نفسك . لا تدع نفسك ترمى بالرصاص ككلب . جان ، اني لا أكرهك، اني أقدرك دائماً ، وكنت أحبك . لقد قمت بالثورة ضد تصرفاتك لا ضدك أنت . حدثهم ، قل لهم كلمة . اني أخجل عنهم وعنك وعني .

وعند كلمات داريو الأخيرة أدار جان رأسه ناظراً إليه بهزء ، مجيباً :

– ستكونون سعداء جداً .

ثم يدير ظهره من جديد ويظل جامداً . ويعم الغضب في الحضور .

بعضهم يؤيد داريو ، والبعض الآخر وقد أغضبهم الموقف ، راحوا يشتمونه.
صيحات مختلفة :

– انه قذر .

– اشنقوه في الحال !

– داريو معه حق !

– لا يمكن قتل رجل لا يدافع عن نفسه .

– انك تعطل محاكمتك !

ويقترب فرانسوا نحو داريو وهو يشير إلى الحضور بيده كي يلتزموا الصمت :

– داريو . قد تكون هناك طريقة ..

فرانسوا يهمس في أذن داريو ، الذي يوافق بإشارة من رأسه ويقول :

– حسناً ، سأذهب .

يخرج داريو من قاعة المحكمة . يتجه فرانسوا نحو الجمهور الذي يستمر في تظاهره . ويصيح :

– الصمت !

ثم ينادي بعد ان صمت الجميع :

– مانكو !

وينهض رجل من الصف الأول ، رجـــل في الستين من عمره ، أصلع الرأس ، يحمل نظارتين كنظارتي عالم صغير عجوز . انه أحـد الأعيان الذين رأيناهم في البداية داخل الردهة . يحمل ملفـات ضخمة تحت ذراعه ويتقدم نحو فرانسوا . فيقول فرانسوا :

– أنت مهندس زراعي . وقد بقيت سنتين في وزارة الزراعـة . وقد عارضت دائماً تصنيع الزراعات ، الذي أمر به آخيرا .

فقال مانكو :

– كانت حماقة وجريمة .

واستطرد مشيراً إلى ملفاته :
– لديّ هنا ما يثبت ذلك .

فيقول فرانسوا :
– اننا نصغي إليك .

يبحث مانكو عن مكان يضع فيــه ملفاته ناظراً فيمن حوله نظرة من أصيب بقصر النظر . ويشير فرانسوا إلى أحد الحراس فيضع طاولة صغيرة أمام مانكو . يضع مانكو ملفاته عليها ، لم يفتح الملفات ، ويبدأ شهادته بصوت رتيب :
– تنتج بلدنا سنوياً ..

بعض شوارع المدينة

يخرج داريو من القصر ويبدأ المسير بخطى حثيثة . رشقات الرشاشات . يستند داريو إلى الحائط ، يرفع رأسه ويظهر انه استنتج ان النيران تأتي عن السطوح . يتابع طريقــه راكضاً في الشوارع التي تفوح منها رائحــة الثورة .

يصل داريو أمام بيت صغير متواضع في مظهره . يشد على زر الجرس : مرّة ، مرتين ، أربع مرات . لا أحد يجيب . يعبر داريو الشارع ، مثبتاً أنظاره على البيت . يصل الرصيف المقابل ويصيح بكل قواه :
– هيلين ! هيلين !

ويتحرك في الطابق الأول ستار فوق شباك .

– افتحي ! هذا داريو !

ينتظر داريو لحظة وهو جامد . ثم ينفتح الباب · يجتازه داريو سريعاً .

تدخله امرأة عجوز بدون أن تتكلم . تقفل الباب وتصعد الدرج . يتبعها داريو .

شقة هيلين

العجوز تدخل داريو في قاعة استقبال وغرفة طعام معاً ، غرفة متواضعة جداً . تشير إلى داريو بالجلوس .

– انها مريضة . انتظر .

تخرج . يتمشى الهوينى في الحجرة وهو يتفرج على الصور . صور لوسيان دراليتش في كل مكان . على الحيطان وعلى الأثاث ، لوسيان يتأبط ذراع هيلين . لوسيان وحده في ثياب التزلج . لوسيان بالقميص في المطبعة . لوسيان يتوسط نحو اثني عشر طالباً .

وفي زاوية الحجرة ، صورة هيلين بين جان ولوسيان يمسكها كل منهما بذراع وهم يضحكون ، والصورة شبه مخبأة على طاولة مستديرة . يأخذ داريو الإطار وينظر إلى الصورة مكفهر الوجه . تدخل هيلين . ترتدي ثياب الحداد . يعيد داريو الإطار إلى الطاولة المستديرة بسرعة ويستدير . فتسأله هيلين :

– ماذا ؟ سيحكم عليه بالاعدام ؟

يهز داريو كتفيه ، بعياء ، وكأنه يقول : « بلا ريب » .

وتسأل هيلين أيضاً :

– كيف هو ؟

– يرفض الدفاع عن نفسه .

هيلين بادية الاضطراب لحضور داريو والأخبار التي يعطيها ، إلا انها تبقى مسيطرة على زمامها وتسأل لكي تغير الحديث :

– كم من الأموات ؟
– لا ندري حتى الآن .

ينظر داريو إلى هيلين وهي تستدير وتتجه نحو النافذة . يمسكها داريو ، يأخذ بيديها ويرغمها على الاتجاه نحوه .

– هيلين هـــذه المحاكمة مهزلة . نحن بغيضون ومضحكون . ويسعون للحطّ من قدره هو . ولكن سنخرج نحن مذلين .

فتقول هيلين :
– كان من الأفضل أن يقتل هذا الصباح أثناء المعركة .
– أجل .

يتردد داريو لحظة ، ثم يقول بنوع من الحياء :
– إذا دافع عن نفسه ...
– ماذا ؟
– كل شيء يتغير . نضع المناقشة على الصعيد الذي يجب أن توضع فيه : السياسة التي انتهجها .

وتطلق هيلين يديها . تذهب إلى النـــافذة فتفتحها . في طرف الشارع انطرحت جثة أحـــد الثوار . تنظر هيلين إلى الجثة مخاطبة نفسها بصوت خافت :

– كل هؤلاء الأموات .. كل هؤلاء الأموات .. وهو سيصار إلى قتله .

يقترب داريو منها .
– هيلين ، ساعدينا .
– بماذا ؟ ماذا يمكنني ان أفعل ؟

ينظر داريو وهيلين في الشارع . يمر ثلاثة رجال مسلحين ركضاً . يسمع من بعيد بعض العبارات النارية . يأخذ داريو لهجة أعنف وأشد إلحاحاً :

– لا أحد يعرفه كما تعرفينه أنت . أنت الكائن الوحيد الذي أحبه . إذا أدليت بشهادتك ..

يمر الرجال الثلاثة من جديد . يمسكون بسجين يمشي بصعوبة فيرفسونه كي يتقدم بأرجلهم وبأعقاب بنادقهم . تتراجع هيلين إلى الوراء وتقفل النافذة بعنف .

– إذا أدليت بشهادتك ، فسيدافع عن نفسه . أمامك ، أنا متأكد انه سيدافع عن نفسه .

تسمع صيحات وطلقات نارية في الشارع .

هيلين ترتعد .

– سوف لا أذهب .

– هيلين ..

– لن أذهب . افهمني يا داريو . لقد قتل زوجي . اني أكرهه . يجب أن أكرهه . لا يمكنني أن أدافع عنه . غير انه ظل كذلك صديقنا القريب . وأخاً لنا . ليس بوسعي ان اتهمه . لا أريد ان أكون مسؤولة عن موته ، مهما كانت المسؤولية ضئيلة .

– لن نطلب إليك ذلك . إذ يكفي أن تأتي وان تقصي الأشياء كما شاهدتها . وسيدافع عن نفسه . وسيوضح لماذا أقدم على قتل لوسيان .

– هل لديه حظ بالنجاة ، إذا أدليت بشهادتي ؟

لم يجب داريو بشيء .

وقالت هيلين بوجه شارد :

– أنت ترى جيداً يا داريو ، هذا مستحيل . لا أريد أن أتدخل به . اغتالوه بدوني .

– نغتاله ؟

-- لم أعد أعرف أين هم القتلة . لقد قتل لوسيان والآن ستقتلونه .

وتعود إلى النافذة لتنظر إلى الجثة . وبدون ان تستدير ، قالت :

– امض من هنا ، امض من هنا ! لديّ ميّتان أبكيهما .

– إذاً ، يا هيلين ، فأنت تقولين لا ؟

– نعم لا . دعني وشأني .

المحكمة

مانكو يتابع كلامه . هي شهادة دقيقة، محشوة بالتعابير التقنية والأرقام والاحصاءات وأسماء القرى . وفرانسوا يصغي . كما يصغي قسم من المحلفين . والقاعة تصغي قليلاً . والناس دبّ فيهم النعاس في مقاعدهم ، وآخرون يناموں بصراحة ، منبطحين على الأرض .

وآخرون يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت في حين كان مانكو يتابع حديثه بلا إعياء .

ويتثاءب جان. ويتجه نحو اثنين من رجال الحرس جلسا متعبين وسلاحهما بين سيقانهما . وقال جان :

– لم يعد لي طاقة .

وينظر إليه الحارسان بوجه خشبي بدون أن يجيبا . يخرج جان من جيبه علبة مليئة بالتبغ وورق سجائر، وبيد واحدة لف سيكارته.وقال للحارسين:

– لست أعسر ، كما تريان .

يقابله الحارسان بصمت ملؤه الكره . وجان يهز كتفيه ويقول :

– حسناً . ليس في نيتي ان اشتريكما .

– هل أنتما من عمال البترول ؟

فقال أحدهما :

– نعم .
– في قسم الاستخراج أو التصفية ؟
– في قسم التصفية .
– أتظنان بأني خائن ؟
– نعم .

ويدل جان بإشارة قاصداً الهيئة والمحامي وفرانسوا والشهود من خلفه .
– وماذا تظنان بالمحاكمة ؟

فيجيب الحارس :
– لم يكن حاجة لذلك . كان من الواجب رميك بالرصاص فوراً .

فقال جان :
– أنا موافق . فرانسوا شديد التنطح .

يبحث جان في جيوبه وهو يتكلم ، باحثاً عن علبة ثقاب لم يعثر عليها . ويسأل الحارسين :
– هل من علبة ثقاب ؟

ولم يتحرك هذان . وانتزع جان سيكارته من فمه حين وقعت من فوق على قدميه علبة ثقاب . ويرفع جان ناظريه . فيرى العامل الشاب ذا الجزمة الممزقة يجلس في النافذة متطلعاً إليه . ينظر جان إليه برهة بدون ان يقول شيئا . ويسأله :
– لماذا لا تصلح جزمتك ؟

يقابل الشاب السؤال بصمت . ويصر جان :
– أهذا يكلف باهظاً ؟

ولم يجب الشاب بشيء . يشعل جان سيكارته . لم يعد صوت مانكو يسمع الآن ، وقد كان يتكلم طيلة الشهر . ويسمع فرانسوا يقول :

– اني أشكر الشاهد .

يرقب مانكو ملفاته ، يحملها تحت إبطه ويعود ليجلس في مكانه . تنهض سوزان وتقول :

– أود أن أشهد . لقد عشت عشر سنوات يوماً بيوم إلى جانب هـــذا الرجل . ولا أحد يعرفه أحسن مني .

ويشير فرانسوا بالرفض . يدير رأسه نحو جـان ، كما لو انه يستشيره . غير أن جان لم يتحرك . فرانسوا يتطلع إلى وجـه سوزان البغيض البارد . يتردد أيضاً ، ينظر إلى ساعته ويسأل حارساً وقف قربه :

– ألم يعد داريو بعد ؟

– كلا .

ورفع فرانسوا كتفيه وأشار إلى سوزان :

– تكلمي .

شقة هيلين

ظل داريو وهيلين واقفين في نفس الوضع أمام النافذة . وبدون أن يمد لها يده ، قال داريو لهيلين :

– إذاً ، وداعاً .

– وداعاً .

يقوم داريو بحركة كأنه يريد الذهاب . ثم ، تأتيه فكرة فيسأل بعـدم اكتراث مصطنع :

– هل تعرفين من يدير المناقشات ؟

– فرانسوا على ما أفترض .

– مبدئياً ، نعم ولكن بالفعل ، انها سوزان تيرييه .

وتقفز هيلين صائحة :

– سوزان ! ليس لها الحق في ذلك هذه المرأة ...

فقال داريو :

– لقد وضعت الهيئة في جيبها ، وكلهم يصدقون ما ترويه

فتجيب هيلين بألم :

– سوزان . تدلي بشهادتها ..

– أظن انها ستتحدث عن حياتهما المشتركة .

وفجأة تغيرت ملامح هيلين .

– ستتحدث عن لوسيان .. ستتحدث عني .

وتذهب فتفتح الباب وتنادي :

– جانيت ! جانيت !

ثم تتجه نحو داريو :

– ليس لي أن أدافع عن جان . ولكن لا أريد أن تسيء إلى سمعتنا . لقد كانت تمقت لوسيان .

وتدخل جانيت ، فتذهب هيلين إليها .

– أريد معطفي . فأنا ذاهبة .

فقالت جانيت :

– أنت مجنونة . القتال دائر في الشوارع .

فتقول هيلين بتعاظم :

– أريد معطفي بسرعة !

سوزان واقفة أمام المحلفين تتحدث بعنف :

– لقد هجرني . المرة الأخيرة التي رأيته فيها كانت في القصر قبل سبع سنوات في اليوم الذي استولى فيه على السلطة ..

شهادة سوزان (عما مر قبل سبع سنوات)

القصر

يحتشد جمع من الناس في قاعة الدخول الكبرى التابعة للقصر المقفر . وهناك سوزان ولوسيان وفرانسوا وماغنان . الجميع ينظرون إلى جان الذي يقف وحده منزوياً . إنه نفس المشهد الذي رواه الخادم ، ولكن ، كما تراه سوزان ، هذه المرة .

يقترب جان ، وكله ثقة ، من الباب الموصد . وبحركة عنيفة ، يدفع دفتي الباب كاشفاً عن سلسلة من الحجرات ذات الأبواب المفتوحة . يشير جان إلى أصدقائه بتعاظم كي يخرجوا فكأنه يريد ان يستأثر وحده بميدانه الجديد . تندفع سوزان نحوه ، فيمسك بها لوسيان .

يبدأ جان بالتقدم بخطى وئيدة واثقاً بنفسه . في طرف الغرفة ينتظره الخادم وعلى وجهه الاحترام الكلي . سووان تراقب جان بحنو وكآبة . لا تزال تريد أن تلتحق به ، إلا أن فرانسوا ولوسيان يحتجزانها .

يدخل جان إلى مكتبه ، يحييه الخادم الذي تبعه وأغلق الباب وراءه .

تنظر سوزان بيأس نحو الباب الذي أغلق على جان وسمعت تقول بصوت حاقد :

« عندما أصبح له خادم ، لم يعد يرغب بي . كان يتجنبني بعناية .. »

باحة القصر

تحاول سوزان الاقتراب من جان الذي يُرى صاعداً في سيارة كبيرة بيضاء . يوقفها أحد رؤساء الحرس . تقلع السيارة البيضاء ببطء .

وتمر أمام سوزان التي تصيح : « جان ! جان » .

في السيارة ، ينظر إليها جان بوجه خشبي ، كما لو أنه لم يشعر بوجودها .

المحكمة

سوزان ، وقد استشاطت غيظاً ، تنهي جملة موجهة للهيئة . تنظر إلى جان دون أن تقول شيئاً ، مطبقة شفتيها . ويسمع صوتها ، صوتها المتفرع في باحة القصر :

– جان ! جان ! لماذا هجرتني ؟ لا كلمة ، لا إشارة . أنا لا أفهم ! جان اشفق عليّ . أنا أحبك يا جان ! أنا أحبك !

ثم تنظر سوزان من جديد إلى الهيئة وتقول بكره بارد هادىء :
– انني أكرهه .

وتتابع بسهولة :
– لم آت لأحدثكم عن غرامياتي . فلو لم يكن سوى ذلك ، لما كان الأمر شيئاً . إلا انه حدث ان عشت سنوات قربه وعرفت إحدى جرائمه . جريمة اقترفها وحده وأنتم لا تعرفونها . ومن الواجب وضعها في عداد التهم الرئيسية .

« قابلت جان آغيرا للمرة الأولى سنة (...) ١٩ كان ذلك قبل الثورة الأولى ... »

شهادة سوزان (عما مر قبل عشر سنوات)
منجم بترول

كل شيء مقفر : انه الاضراب ، ويتابع صوت سوزان :

– .. في فترة الاضراب الشهير كانت الأولى ، هيلين بورج ، التي تعتبر نفسها أفضل صديقاتي ممرّضة في مصح المصنع . لم تكن قد تزوجت بعد لوسيان دراليتش الذي اغتاله آغيرا بعد ذلك . ذات ليلة ..

شقة سوزان

سوزان نائمة في سريرها . يقرع الجرس. سوزان تستيقظ وترهف السمع . يقرع الجرس من جديد . تقفز سوزان من سريرها ، تشعل الضوء ، ترتدي معطفاً فوق قميص النوم ، تنتعل صندلها وتذهب نحو الباب . وتسأل :

– من هنا ؟

– افتحي أنا هيلين .

تفتح سوزان الباب . تظهر هيلين . إلا انها تختلف تماماً عن هيلين التي تعرفها . هي امرأة شديدة التبرج ، ترتدي فستاناً يلفها بشكل مثير وتقلد طرق الامرأة الخطيرة . انها هيلين ، كما تراها سوزان .

وتلاحظ سوزان خلف هيلين شبح رجلين . فتتراجع قليلاً .

فقالت هيلين :

– لا تقلقي . انهما من الأصدقاء .

وتدفع الباب بخطى ثابتة وتكاد تلطم سوزان أثناء دخولها . وتتحدث بصوت أقرب إلى الوقاحة . ويدخل الرجلان وراءها . كانا وسخين متعبين ، ثيابهما ممزقة . يدخل لوسيان أولاً ، ثم جان وعليه سيماء الكآبة والقساوة ، يحيي لوسيان سوزان ببسمة ودية :

ـ اعذرينا .

تتساءل سوزان وهي تتفحص لوسيان وجان بقلق :
ـ ماذا هنالك ؟

ويسأل جان بجفاف متطلعاً إلى سوزان بقساوة :
ـ هل عندك جيران ؟
ـ كلا فالشقة المجاورة فارغة .
ـ حسناً .

تتفحص سوزان وجه جان بفضول وتكرر السؤال .
ـ وأخيراً ، ماذا حدث ؟ من أين أتيتم ؟

ولم يجب جان . وتبدأ هيلين الحديث بلهجة سيدة المجتمع ، لهجة ينقصها الاخلاص . يبدو عليها الانفعال ، ولكن بغير حزن .
ـ أوه يا سوزان ! إن الأمر رهيب ! لقد أطلقوا الجيش . وتم احتلال المصنع قسراً . وهم يريدون اعتقالنا .
فتسأل سوزان :
ـ هل كنت هناك ؟

ويفتر وجه هيلين عن ابتسامة جريئة مزهوة :
ـ بالطبع ، كنت هناك. وهما أيضاً . آه ! لقد نسيت لوسيان درالبيتش وجان آغيرا .
فيقول جان زاجراً :
ـ اسكتي .

ولا يميل نظره عن سوزان ، فتخفض نظرها . وتقول هيلين :
ـ انها أفضل صديقاتي .
فيهز جان كتفيه .

– لا حاجة لها بأن تعرف من نحن .

فتجيب سوزان :

– إذاً فلا حاجة لكم بالبقاء عندي .

فيقول جان :

– حسناً حسناً .

ويدور نصف دورة ويستعد للخروج . يمسك لوسيان بذراعه باسماً :

– اسمع يا جان ! علينا ان نثق بالآنسة . وستقابل هي الشيء بالمثل ، ثم سترى انها لن تخوننا .

فقال جان :

– فليكن ، على كل حال ، فليس لدينا الخيار .

وتجرح كلماته سوزان فتبدي اشمئزازها . ويقترب لوسيان منها .

– لقد كنا لتوّنا في المصنع ، وقد هربنا في الأقبيـــة ، لكن الشرطة تلاحقنا . فهل لك ان تخبئينا ؟

– كم من الوقت ؟

ويهز لوسيان كتفيه إشارة لجهله . تنظر سوزان إلى الرجلين نظرة تردد :

– كلاكما ؟

وتقف هيلين بـــين الرجلين ، تمسك بذراعيهما بدالة ملؤها الاستفزاز ، وهي تبتسم لهما قائلة :

– الثلاثة معاً .

– ان الصديقة التي تقيم معي ستعود بعد غد .

ويخلص جان ذراعه ويسير خطوة نحو الباب .

– لا بأس . فهي ترفض . فلنذهب .

تبدي هيلين إشارة انزعاج .

– انتظر أنت . من قال انني أرفض ؟

فيجيب جان :

– على كل حال ، لا تبدين متحمسة .

ثم يضيف متوجهاً نحو لوسيان :

– هناك كثيرات في هذه المشكلة .

يقرع الباب . الجميع يقفون مذعورين يتطلعون بقلق . تحافظ سوزان على هدوئها ولا تلبث أن تصمم. تضع اصبعها على فمها وتشير لهم كي يتبعوها. تفتح باباً يؤدي لحجرة كبيرة تستخدم للغسيل والأمتعة الفائضة . كانت حزم الغسيل والأمتعة مبعثرة فيها . وقد علق غطاء كبير على كرسيين . ويرن الجرس من جديد ، ويقرع الباب . وتدلهم سوزان على زاوية الحجرة .

– اجلسوا هنا وضعوا الغطاء فوقكم . بسرعة .

ثم تغلق باب غرفة الغسيل وتذهب نحو السرداب .

– من هنا ؟

– الشرطة . افتحي .

وتفتح سوزان.تتظاهر بالنوم وتتطلع إلى الشرطيين بعينين قصيرتي النظر.

– ماذا تريدان ؟

– عندك بعض المضربين !

فقالت سوزان :

– بعض المضربين ! يا للهول !

وتفتح الباب على مصراعيه .

– ادخلا ، وفتشا . لن يطمئن قلبي ما لم تفتشوا في كل مكان .

يتبعها الشرطيان إلى الحجرة وينظران حولها . تفتح سوزان باب غرفة الغسيل . لم يكن بالامكان رؤية جان ولوسيان وهيلين القرفصين بين قطع

الأثاث واضعين الغطاء فوقها .

وقالت سوزان :

– هذه غرفة الغسيل عندي . ولكن كان عليهم أن يمروا في غرفتي .

وتغلق الباب ثانية وتعود إلى الشرطيين وكانا قد استعدا للخروج :

– ألا تبحثان تحت السرير ؟

فقال أحدهما وهو يهز كتفيه :

– لا تهذري .

ويخرج الرجلان بشبه تحية . تقفل سوزان البـــاب وراءهما بالمفتاح ، ثم تعود إلى غرفة الغسيل . ويخرج كل من هيلين وجان ولوسيان من تحت الغطاء وينظرون إليها . تتطلع سوزان إلى جان باسمة :

– إذاً ؟ هل ترى دائماً ان هناك نسوة كثيرات في هذه المشكلة ؟

المحكمـــة

سوزان واقفة أمام المحلفين ، تتابع كلامها :

– لم يكن بوسعي ان أبقي عليهم عندي . فاقتدتهم إلى مزرعة عمي ، في زاوية ضائعة . لم يكن لأحد أن يستطيع الوصول إليهم فيها . في البداية ، كان كل شيء على ما يرام . كان لوسيان يكتب روايته الأولى . وهيلين تلعب دور المرأة اللعوب . وجان يسأم من الصباح حتى المساء. وأنا أقوم بخدمتهم.

شهادة سوزان (عما مر قبل عشر سنوات)
القاعة المشتركة في مزرعة سوزان

لوسيان يكتب على حافة طاولة كبيرة . سوزان ترمي حطبة أخرى في النار وتلقي نظرة إلى محتوى القدر الكبير المعلق فوق النار . أمـام المرآة

هيلين ترتب زينتها .

يقف جان أمام النافذة ناظراً إلى الخارج . يتثاءب بملء فيه، تمر سوزان أمامه حاملة الصحون والسكاكين والشوكات التي ستضعها على الطاولة. وقالت لجان أثناء مرورها :

– يبدو انك لا تحب الريف .

يحدجها جان بنظرة متجهمة ويجيب مهمهماً . تبدأ سوزان بوضع الآنية . يرتب لوسيان أوراقه ويغطي قلم الحبر . تقترب هيلين من الطاولة :

– مسكين يا لوسيان ، سوزان عديمة الشفقة . حتى انها لا تحترم عملك !

ثم تضيف متوجهة نحو سوزان :

– انه كاتب كبير ، هل تدرين ، ستقطعين عليه حبل أفكاره .

وتجيب سوزان بخشونة :

– هذا ممكن ، ولكن عليه ان يأكل مهما كان كاتباً كبيراً .

نهض لوسيان بسرعة . يبدو انه اغتاظ من كلمات هيلين وابتسم بمنتهى اللطف لسوزان :

– اعذريني يا سوزان . بالعكس ، كان عليّ أن أساعدك .

فقالت سوزان :

– صه . إن هذا ما كان يقطع عليك حبل أفكارك .

يتناول لوسيان رزمة من الصحون ويساعد سوزان في إعداد المائدة .

– لا أبداً . كانت ملاحظات لا أهمية لها .

تتجه هيلين نحو لوسيان بغنج :

– لا أهمية لها ؟ أنا التي كنت أود أن أكلمك فلم أجرؤ كيلا أزعجك..

لوسيان مقرفص أمام البوفيه، فيخرج منها كؤوساً وزجاجة نبيذ يبتسم لهيلين بحنو ويقول لها :

– حسناً ، حدثيني .
– هل نستطيع العودة قريباً ؟

يضع لوسيان الكؤوس والزجاجة على الطاولة .
– لا أدري . اسألي رجل أعمالنا الكبير . فهو الذي سيقرر .

يبدأ لوسيان برصف الشوكات والسكاكين إلى جانب الصحون . هيلين تنظر إلى جان الذي ما زال عند النافذة ، ثم تسأل لوسيان :
– لماذا تسميه دائماً رجل أعمالنا الكبير ؟ ألست رجل أعمال أنت ؟
– كلا .
– لماذا ؟
لوسيان يوقع سكيناً وهو يستدير كي يجيب . ويوقع ثلاث شوكات عندما ينحني لالتقاط السكين . تضحك هيلين قليلا . يضحك لوسيان أيضاً وهو يريها الشوكات التي التقطها .
– أنت ترين لماذا لا يمكنني ان أكون رجلا عملياً . وبعده ...

فقالت هيلين :
– وبعده ...؟
– هل تعرفين المثل القائل « ليس بالامكان تحضير العجة بدون كسر البيض ؟ » حسناً ، فأنا لا أريد كسر البيض حتى لتحضير العجة .

يتابع لوسيان ترتيب الطاولة مع سوزان ، تنظر إليهما هيلين بدون أن تتكلم ، ثم تذهب نحو جان . تلاحقها سوزان بنظرة قاسية .

ما ان وصلت إلى قرب جان حتى مرت بيدها برفق على عنقه . يرتعش جان ويستدير نحوها متطلعاً إليها بعين ملؤها الرغبة ، رغبة بادية هدمت هيلين . وتحاول ان تمازحه ، لكنها باتت محرجة :

– يبدو انك تحسن تحضير العجة ؟

وبدا جان غائباً ، مثبت العينين على فم هيلين .

– أية عجّة ؟

– انني أهذر . متى سنعود ؟

فقال جان :

– لا أدري .

ثم أضاف من بين أسنانه :

– لا أرغب في العودة .

هيلين وقد ازداد إحراجها تحاول ان تستأنف المزاح :

– لماذا تنظر إلي هكذا ؟ انك تخيفني .

– أنت تعرفين جيداً لماذا أنظر إليك .

تنظر سوزان إليهما وعليها سيماء التجهم ، وقد فرغت من إعداد المائدة .

المحكمـــة

لا يزال جان على كرسيه يدير ظهره للهيئة ، لكنه يصغي باهتمام لشهادة سوزان التي يسمع كلامها من خلفه .

– كان يلاحقها بدون أن يقول شيئاً ، وكان يتطلع إليها . كانت تخافه ، وهي وان كانت في البدء مغناجاً وقد باتت تخشاه .

شهادة سوزان (عما مر قبل عشر سنوات)
قاعة المزرعة المشتركة

سوزان تقوم بأعمال المنزل . هيلين جالسة إلى الطاولة وأمامها كتاب مفتوح . ينظر جان إليها بإمعان . لا تلبث هيلين المحرجة أن ترفع رأسها .

– حدثني ! قل أي شيء .

– ليس لدي شيء أقوله . فأنا لا أجيد الحديث كلوسيان .
– أنت تعلم أن نعم . تجيد الحديث تماماً عندما تشاء .

سوزان والسطل بيدها تتردد قليلاً عند الباب . ثم تملأ سطلها في المطبخ وتعود .

هيلين بين ذراعي جان الذي يقبلها . ولا ندري إذا كانت موافقة أم لا، إلا أنها تخلص نفسها فجأة وهي تنظر إلى جان نظرات غريبة .

يدير جان ظهره بدون أن يقول شيئاً ويخرج بغتة . تمشي هيلين عدة خطوات ، تجلس إلى الطاولة وتجهش بالبكاء واضعة رأسها بين ذراعيها .
– لقد قلت ما فيه الكفاية ! أجل قلت ما فيه الكفاية ! أريد أن أعود إلى بيتي .

تقترب منها سوزان وتداعب شعرها بحركة آلية . لا يزال وجهها قاسياً .
– إنك تتدلعين على الاثنين : عليك أن تختاري ! تنتفض هيلين فجأة :
– لقد تم الاختيار : فلوسيان يريد أن يتزوجني .
– إذاً ؟
– وافقت .

وعلت وجه سوزان للحظة مسحة انتصار مكتوم وسألتها :
– لماذا ؟ لأنه أجمل ؟

وتكشر هيلين موافقة . وتتابع سوزان :
– ثم إن له ذراعين اثنين .. ثم انه سيصبح كاتباً كبيراً .. ماذا ان له كل الامتيازات .

تتحدث سوزان بتعابير منفصلة لترغم هيلين ، وهي تجيب عن كل سؤال بتكشيرة ، على ان تبدي حقارتها . ويبدو ان هيلين قد وقعت في الفخ . وتمسح دموعها وتبتسم ببرود ابتسامة ذات مغزى .

يسمع صوت سوزان أمام المحكمة :
– تزوج لوسيان من هيلين في القرية . عشية الزواج ...

في نفس القاعة ، سوزان وهيلين وجان ولوسيان . الوقت مساء . الجميع يجلسون أمام الموقد حيث أضرمت نار حامية . جو من الحرج . سوزان تراقب الثلاثة الآخرين بصرامة ، ولا تلبث ان تخرق الصمت :
– إذاً سوف لا نذهب للنوم ؟

وما كاد الثلاثة يخرجون من جمودهم حتى يجيبوا برخاوة : « بلى .. بلى .. بلى .. » ولكنهم لا يتحركون . من جديد ينجم الصمت والجمود . لوسيان يتطلع بإمعان إلى طرف حذائه . وينقر جـــان على ذراع الكنبة . وتنظر هيلين بعينيها الجاحظتين إلى اللهيب بوجه غائب . ساعة الحـــائط تشير إلى منتصف الليل . يرتعدون ويتطلعون إلى الساعة معاً . وتعزم هيلين .
– انه منتصف الليل . يجب ان تصعدي يا سوزان . فأنت تستيقظـين باكراً على الدوام .

سوزان لا تستجيب وقد صممت على الانتظار .
– كلا . كلا . اصعدوا أنتم أولاً . فعليّ ان أرتب الآنية .

وينهض لوسيان أسفاً .
– لا يمكننا ان نجعلها تسهر أكثر من هذا الوقت الطويل .

وتنهض هيلين بدورها . ها هي إلى جانب لوسيان . والاثنان ينظران إلى جمجمة جان الذي لم يتحرك ولا يزال ينقر على ذراع كنبته . وتمنيـــا لسوزان ليلة سعيدة ، ثم قالت هيلين بنوع من الاحراج :
– إلى اللقاء يا جان .

فقال جان بدون ان يتطلع :
– إلى اللقاء .

وقال لوسيان :
– إلى اللقاء يا جان .

ويرفع جـــان بصره نحو لوسيان ويبتسم له بلطف . وبغير اهتمام يمسك كأساً ملقى على طـــاولة صغيرة يشده في يده : يمضي لوسيان وهيلين حتى الدرج ، يصعدان الدرجات بانزعاج ، ويختفيان ، ويسمع وقع أقدامهما هنيهة ثم يخيم الصمت . في هذه اللحظة يمد جان يده السليمة لسوزان قائلاً :

– اغسلي هذا .
– ماذا ؟
– هذا .

يفتح جان يده ! كانت مليئة بالدم . لقد حطم الكأس الذي كان يمسكه . وتطلق سوزان صرخة .

فقال جان :
– لا تشيحي ببصرك . اغسلي هذا .
– أنا لا أشيح أبداً .

تذهب سوزان الى المغسلة ، تملأ وعاء بالماء وتعود الى جان بإناء وخرقـة نظيفة ومنديل كبير . يتطلع جان الى السقف ، بدون أن يعير انتباهه لمـا تفعله سوزان . وعندما انتهت تركت يد جان المضمدة .
– هنا ، ينتهي العمل ، الى اللقاء يا جان .
– الى اللقاء .
– يمكنك أن تقول لي شكراً .
– شكراً .

تنهض سوزان وتصعد الى غرفتها تنظر الى نفسها في المرآة مبتسمة . ينفتح الباب وراءها بتؤدة . انه جان . تنظر إليه سوزان فيخيفها رأسه .

تتراجع قليلاً ثم تحافظ على زمامها . يقترب منها ببطء . مـا ان يصل الى قربها حتى يتوقف وينظر إليها . قائلاً من بين أسنانه :

– ضوء القمر مشع . وقت ملائم لليلة زفاف . أليس كذلك ؟

– نعم . انه وقت جميل .

فجأة يأخذ جان سوزان بين ذراعيه ويقبلها في فمها . وبينما كان يقبلهـا يسمع صوت محامي جان الساخر وهو يسأل :

– وهل رضيت بذلك وأنت تدرين انه يحب أخرى ؟

فتجيب سوزان :

– لم يكن يحبها . كان يرغبها ليس إلا .

ويسأل المحامي :

– وأنت كنت تحبينه إذاً ؟

– أنا .. أنا ..

يبتعد جان عن سوزان التي ترفع إليه رأساً تشع منه النشوة .

ثم نرى سوزان في باحة قصر الحكومة وهي تنظر الى جان خارجاً في سيارته الكبيرة البيضاء ، منادية بصوت ملؤه اليأس : « جان ! جان ! »

وتقول سوزان بخشونة :

– كلا لم أكن أحبه .

المحكمـــة

سوزان تتحدث الى الهيئة :

– غير اني وهبته حياتي . لقد كنت خادمة له ولم يكن ليفعل في ذلك شيئاً . وكان يكرهني دون ان أدري لماذا . في تلك الحقبة أعلن العفو العام وعدنا الى المدينة . وجهزوا منظمة ثوريـة . كانوا يجتمعون في بيتي . كان

جان يريد إدارة اللجنة ، وكان له منافس ذو شأن : هو بنغا ، بنغا الصغير. فهل تتذكرونه ؟

شهادة سوزان (عما قبل تسع سنوات)
شقة سوزان

جان جالس على كنبته . عليه دلائل الانهاك ويبدو أنه لا يرى سوزان قبالته .

فيقول :
– غليوني .

تناوله سوزان غليوناً محشواً بالتبغ فيضعه في فمه . تمد له عود ثقاب مشتعل . فيقول جان وهو يشعل غليونه :
– تجتمع اللجنة هنا في الحال . عليك ان تقدمي الجعة .
– كم سيكون عددكم ؟
– ثمانية كالعادة .

يقرع الباب . ينهض جان .
– ها هم يصلون . امضي . وهاتي الجعة حين أناديك .

تدخل سوزان غرفة الغسيل . تتناول زجاجات الجعة من السلة وتضعها على طبق . وتضيع لحظة في نحيب قصير . ثم تتملك نفسها وتتلبس وجهاً ملؤه الصرامة والقساوة . وتجلس بالانتظار . وفجأة تصل إليها من الغرفة المجاورة نبرات صوت قوية . ترتعد سوزان وتتلكأ ثم تذهب إلى الباب لتتطلع من خلال الثقب .

ترى أعضاء اللجنة ومن بينهم لوسيان وهيلين . جان وبنغا واقفان وهما يتنازعان بغضب . يخلص جان إلى إمساك بنغا من قفا سترته ويهزه بغضب

المجنون . تفتح سِوزان الباب وتندفع .

– جان !

يترك جان بنغا ويستدير نحو سوزان .

– من سمح لك بالدخول ؟

يتطلع جميع أعضاء اللجنة نحو سوزان . كانت محرجة بصورة رهيبة .

– إذهبي وهاتي لنا الجعة .

تخرج سوزان . تأخذ قناني الجعـــة وتعود . يلتقي نظرها وهي تضع الزجاجات على الطاولة ، بنظر هيلين فتبتسم لها هيلين . يسمع صوت سوزان تقول بحرارة : « كانت هيلين من اللجنة . ليس أنا » .

ترد سوزان على ابتسامة هيلين ببرود ، ثم تقفل راجعة إلى غرفة الغسيل. وبينا هي تغلق الباب ، يسمع صوت جان القاطع يقول :

– إما رأيه وإما رأيي . عليكم ان تختاروا .

بعد ذلك بساعات

الحجرة التي تجتمع فيها اللجنة: القناني الفارغة، الأقداح الوسخة وصحون السجائر المليئة . يضرب جان على الطاولة غاضباً :

– سيكون هو أم أنا . لا يمكن أن يطول ذلك !

تحافظ سوزان التي تطرز وهي جالسة على كنبتها ، على وجه غير آبه . يكرر جان بغيظ .

– هو أم أنا ! سأنال منه !

سوزان مستمرة في تطريزها . يسمع صوت يقول بخشونة : « لقد انتصر عليه . ذات يوم .. »

دائماً في نفس الغرفة ، سوزان جـــالسة تطرز . يقرع الجرس . تذهب سوزان فتفتح : انها هيلين تدخل الحجرة وكأنها تدخل بيتها ، وتسأل :
– أين جان . أريد مقابلة جان .

فقالت سوزان :
– هل منعتك مرة من مقابلته ؟ انه في غرفة الغسيل . انه يعمل .

تذهب هيلين وهي على أشد مـــا تكون من التبرج والحركة والاثارة والابتذال ، تواً الى غرفة الغسيل فتفتح بابها دون أن تطرقه . ينهض جـان مبتسماً وقد كان يجلس إلى طاولة فوق أوراقه . تذهب هيلين إليه . تقف سوزان عند الباب مبدية إصرارها على البقاء . تسعل هيلين قليـــلاً لتجلي صوتها ، ثم تقول بوقاحة :
– اعذريني يا سوزان ، أريد ان أتحدث إلى جان وحده .
– ألديك ان تقولي له أشياء لا يمكنني سماعها ؟
– أنا من اللجنة يا سوزان .
– إن لها الأفضلية تلك اللجنة .

تخرج سوزان وتغلق الباب بعنف تجوب الغرفة بالطول والعرض متعمدة إحداث الضجة . ثم تعود إلى الباب بخطى حثيثة . تتطلع أولاً من ثقب الباب ثم تلصق أذنها بالباب مصغية . فتسمع هيلين تقول :
– ها قد غصت كثيراً يا جان . لم يعد بإمكانك التراجع .

فأجاب جان .
– لقد فزت يا هيلين . لقد فزت . اذهبي . ولا تدعي لوسيان يعرف شيئاً .

تعود سوزان إلى كنبتها وتعود للتطريز متظاهرة بالـــبراءة . يفتح باب

غرفة الغسيل . تخرج منه هيلين وقد احمرت عيناها من البكاء . تمضي لتوهـا قائلة وهي تمرّ : « إلى اللقاء يا سوزان » .

ولم تجب سوزان بشيء . تنظر إلى جان وهو يدخل الحجرة بخطى وئيدة فتسأله :

– ما كانت تريد ؟

– لا شيء .

– لي الحق بأن أعرف لماذا أتت امرأة لتجتمع بك في بيتي في الساعـة العاشرة مساء ثم تخرج بعد نصف ساعة بوجه مخيف .

فقال جان :

– لم تكن تريد شيئاً .

يذهب إلى الخزانة يفتحها ويفتش في أحد أدراجها . تنهض سوزان شديدة القلق :

– عما تبحث ؟

يضع جان شيئاً ما في جيبه دون ان يجيب .

تفحص سوزان محتوى الدرج وتسأل :

– جان لماذا أخذت المسدس ؟

– لا تتعبي رأسك .

تحدج سوزان جان بعينين مرتاعتين كلها ارتياب وتقول :

– انه من أجل لوسيان ؟

فيرتعد جان :

– من أجل لوسيان ؟ أنت مجنونة ! لماذا من أجل لوسيان ؟

يذهب نحو الباب . تركض سوزان إليه وتسد طريقه .

– لن تمر قبل أن تقول لي لماذا ؟

فقال جان وهو يزيحها :
– ابتعدي من هنا · انه من أجل بنغا ·
– من أجل بنغا ؟
فقال جان :
– انه منافق . وها أنا أحمل الدليل إلى اللجنة .

تنظر سوزان إلى جان بنوع من الاعياء الأليم :
– آه .. ها أنت تحمل الدلائل ... وبعده ؟
فقال جان :
– يجب ان يدفع الثمن.ويبتسم بخبث السادي ويضيف وهو يفتح الباب: « لقد فزت به أليس كذلك ؟ »

يخرج . تناديه سوزان وهو ينزل الدرج :
– وهل لهيلين علاقة ؟
فقال جان دون ان يدير رأسه :
– لا تهتمي بهيلين .

تغلق سوزان الباب بتؤدة .

المحكمة

تتابع سوزان شهادتها أمام المحكمة :
– لقد قتل بنغا بيده في الليل . وتمر خمسة عشر يوماً يعرف الجميع بعدها أن بنغا كان بريئاً . ولكن قد فات الأوان . لقد قتل بنغا لأن بنغا كان يضايقه . وبعدها قتل لوسيان دراليتش لأنه كان يحسده على شعبيته ويشتهي امرأته .
وصاح صوت امرأة في القاعة :

– أنت كاذبة .

وتستدير سوزان إلى الخلف وكذلك الحضور جميعهم : كانت هيلين في آخر القاعة واقفة إلى جانب داريو . وفي نفس اللحظة التي كانت جميع الأنظار مصوبة إليها ، قالت هيلين ببساطة :

– أنا هيلين دراليتش ، زوجة لوسيان دراليتش الذي مات في النفي بناء لأوامر جان آغيرا .

هيلين تتقدم من مكان المحكمة . ينهض جان وهو ينظر إليها . تنظر هي إليه وتتوقف مرتبكة . وفي هذه اللحظة يختفي فجأة جميع الحاضرين من فرانسوا إلى هيئة المحلفين إلى الحراس إلى المحامي ، الكل يختفون . ولم يبق في القاعة الفسيحة سوى هذا الرجل وتلك المرأة ينظران إلى بعضهما البعض . ثم تزيح هيلين نظرها عن نظر جان وتتابع مشيتها . عندها امتلأت القاعة من جديد وأخذت تغلي بهمهمات مؤيدة . كانت هيلين تحافظ على ما يظهر ، على جانب من شعبيتها التي ورثتها من لوسيان لدى الجمهور .

يتقدم فرانسوا نحو هيلين بلهفة ويمسكها بيدها متلفظاً بكلمة واحدة :

– شكراً .

تومىء له هيلين برأسها ، ولكنها تستمر نظرها على سوزان قائلة :

– أنت تكذبين يا سوزان . وأنت تعلمين انك كاذبة ! انه لم يقتل لوسيان بداعي الحسد .

– لماذا إذاً ؟

فقالت هيلين :

– سأشرح ذلك للجنة .

– أتيت للدفاع عن قاتل زوجك ؟

فأجابت هيلين :

– لقد أتيت لأنهم أرادوا ذلك وسأقول الحقيقة . منذ لحظة وأنا أصغي إليك . أنت تشوّهين كل شيء . هاك واقعة قصيرة ، فمشية مصرع بنغا ، لم آت في العاشرة مساء بل في الثامنة .

شهادة هيلين (عما مر قبل تسع سنوات)
شقة هيلين

هيلين على المدرج . ليست هيلين نفسها التي تمثلت في شهادة سوزان، كانت في ريعان الشباب ، لا تكاد تضع أية زينة ، ترتدي ثياباً متواضعة ، كان القلق والحزن باديين عليها وإذا ما تصرفت ببعض السهولة فلم يكن لديها الثقة الوقحة كما عند سوزان . حتى ان رجفة صوتها تختلف .

تقرع باب سوزان ، الذي ينبعث منه صوت الراديو . وبينما كانت هيلين تنتظر ، يسمع صوتها ينادي : لم تكوني تطرزين ، كنت تسمعين الراديو ..

يفتح الباب . تظهر سوزان ، متبرجة كما كانت هيلين مرتدية ذات اللباس المثير الذي كانت ترتديه هيلين ، في شهادتها . وقالت هيلين :

– سوزان . هناك أمر مخيف . يجب أن أقابل جان بكل الأحوال .

تنظر سوزان إليها بنية سيئة .

– انتبهي يا هيلين ، هذا مزعج ، ولكن هناك شخصاً عنده .

يفتح باب غرفة الغسيل ، ويظهر جان :

– لماذا تقولين هذا يا سوزان ؟ فأنت تعلمين اني وحدي .

يظل الأشخاص الثلاثة واجمين . يسمع صوت سوزان في المحكمة قائلة :

– وبعده ؟ لقد ضقت ذرعاً بك تحومين حول حبيبي ..

يتحول الأشخاص الذين وقفوا لا حراك بهم ، في نفس الوقت الذي يسمع فيه صوت سوزان . تعود هيلين إلى تحديها وسوزان إلى تواضعها .

يتابع صوت سوزان :

– صحيح اني كذبت . صحيح اني رفضت أن تقابلي جان . فكيف لا أدافع عن نفسي ؟

هيلين بلهجة التحدي ، تدفع سوزان وتروح نحو جان ، كلاهما يدخل غرفة الغسيل . تذهب سوزان لحو الباب بدون أن تحدث ضجة. يسمع صوتها يردد بحقد :

– تبا للجنة ؟ أتظنين اني لم أكن أعرف ما كنتما تفعلان خلف الباب ؟

تنحني سوزان . ومن ثقب الباب تشاهد هيلين وجان يتعانقان .

ينادي صوت هيلين بحزن :

– أنت قذرة يا سوزان ..

المحكمة

هيلين تقف أمام اللجنة وجها لوجه مع سوزان . تنظر إليها بحزن يفوق الاحتقار . حزن عميق يكسو وجهها . ثم تخاطب الهيئة :

– جئت لأطلب عنوان بنفسا . لقد حكمت عليه اللجنة بالموت وعيّن لوسيان لتنفيذ الحكم فيه . وفي اللحظة الأخيرة ، قال لي لوسيان انه لن يقتل بنفا . وكنت أريد ان أفعل ذلك مكانه وفي النهاية أقدم جان على ذلك .

فسأل فرنسوا :

– لماذا كان يرفض لوسيان ؟

ثم يخاطب سوزان :

– ألم يعد لديك شيء تقولينه ؟

فأجابت سوزان :

– لا شيء الآن .

ثم أومأت إلى سوزان وخاطبت الهيئة :
– لكن هذه كانت سكرتيرته ، عندما كان في الحكم ، وأظن انهما كانا يفترشان سريراً واحداً . فقد تشترك معه في التهمة .

ولأول مرة يتدخل جان . لقد ظل واقفاً منذ دخلت هيلين ولم ينفك عن النظر إليها . وقال :
– تركتني سوزان قبل عشر سنوات في اليوم الذي أوقف فيه لوسيان دراليتش . لقد كانت سكرتيرة لي ، ولكنها لم تكن يوماً عشيقة لي . لم تك مسؤولة ولو قليلاً عن انتهاج السياسة التي تتهموني بها .

يعود جان فيجلس . لم تنظر سوزان إليه عندما كان يتكلم . فرانسوا يخاطب كلاً من جان وسوزان .
– اننا نعرف ذلك. وهيلين دراليتش تمثل أمامنا بصفة شاهدة لا متهمة.

ثم يخاطب هيلين :
– نحن نصغي إليك .

تواجه هيلين الهيئة وتبدأ الكلام :
– ابتدأ كل شيء خلال إضراب البترول . كنت ممرضة في مصح المصنع. لم أكن أهتم قط في السياسة ، غير اني كنت عضوة في النقابة . ولم أكن أعرف جان بعد ، وكان قائداً نقابياً ، ولكني كنت أعرف ان لوسيان دراليتش كان أفضل صديق لديه إذ كان كأخيه .

شهادة هيلين (عما مر قبل عشر سنوات)
منجم البترول

انه الاضراب . ما من أحد في العمل . في شوارع المدينة العمالية. يتجول العمال أو يتجمعون جماعات صغيرة .

يسمع صوت هيلين :
ـ كان شولشر يدفع أجوراً حقيرة . كان الاضراب الذي بدأ في أيار (...) ١٩ مستمراً منذ شهر .

احدى طرق الحقل

الوقت ليل . لوسيان وهيلين يسيران جنباً إلى جنب . يتقدمهما رجل فوق دراجة يقودها في العتمة .

وسألت هيلين :
ـ هل المسافة بعيدة أيضاً ؟

فقال لوسيان :
ـ على بعد خمس دقائق .
ـ وأين المكان أخيراً ؟
ـ في مقلع مهجور .

تهز هيلين كتفيها بانزعاج .
ـ لماذا نلعب دور المتآمرين ؟
ـ انظري يا هيلين .. النقابة ليست معترفاً بها وأنت تعلمين اننا لا نستطيع عقد اجتماع رسمي في المدينة .

فقالت هيلين :
ـ أنا متعبة .
وتتوقف لحظة ، فيقول لوسيان :
ـ ها نحن على وشك الوصول . ثم ان رؤيته ستروق لك .
ـ من ؟
ـ كفاك ، انه جان آغيرا بالطبع .

– ليس من أجل جان آغيرا هـــذا قد ازعجت نفسي . فأنا ذاهبة الى اجتماع لا الى قاعة موسيقى .

فقال لوسيان :

– انه يزعجك سلفاً . انها غلطتي . لكنك ستغيرين رأيك : انـه قوي جداً وذكي جداً . فهو الذي نظم النقابة ويعمل فيها كل شيء .

تطلق هيلين ضحكة قصيرة عصبية :

فيسألها لوسيان :

– ما بالك ؟

– انه انت يا لوسيان ! انت تنفرد بفتاة في الطريق وتختار هذه اللحظة لتحدثها عن آغيرا .

– ولكن ..

يتوقف لوسيان وينظر نحو هيلين متردداً . تمر أمامها عربة يجرهـــا حصانه . يوقف السائق حصانه وينحني وبيده قنديل يضيء به أمـام هيلين ولوسيان .

انه جان الذي قال باغتباط :

– هذا انت يا لوسيان ؟ اصعد بسرعة .

فقال لوسيان :

– انه جان .

ويقترب من العربة مضيفاً :

– ولكن معي من يرافقني .

– اصعدا أنتما الاثنين .

تصعد هيلين ولوسيان الى العربة .

يجلس لوسيان بين هيلين وجان . يجري التعارف :

– جان آغيرا ، هيلين دارجيل .

– مرحباً يا آنستي .

تجيب هيلين بتحية جافة :

– مرحباً .

يربت جان على كتف لوسيان تربيت الصديق :

– أنت على ما يرام أيها الأخ الصغير ؟

فيجيب لوسيان وهو يتطلع قليلاً نحو هيلين :

« على ما يرام . بل أحسن ما يكون . وانت ؟ »

– أنا في حال سيىء . أتعرف لماذا يعقد الاجتماع ؟

– كلا .

– استحصل شولشر على ترخيص باستقدام خمسة آلاف الماني يوم الاثنين . يحطمون اضرابنا . ويعملون بدلاً عنا .

– يا إلهي . ماذا نفعل ؟

– ما نفعل ؟ هذا ما يجب أن تقرّره .

وبينما كان جان ولوسيان يتحادثان ، تتظاهر هيلين بأنها تتجاهلهما متفرجة على المكان ، وقد ازعجها تجاهلهما لها . وتصل العربة أمام مقلع ألغي استعماله حيث كان يجتمع نحو مئة شخص .

تتحدث هيلين بدون أن تنظر الى جان . ولكنه كان يتطلع اليها : لقد أدار كرسيه نحوها دون أن ينفك عن النظر إليها : وهيلين تشعر بنظراته . يظهر ذلك من طريقة نظرها الثابتة الى الحالفين في حين أنهـــا كانت تنتزع الكلمات من فيها انتزاعاً . وقالت :

– كان لوسيان يضايقني وكذلك جان كان مزهواً بنفسه . عندما ارتكبت حماقة ..

شهادة هيلين (عمّا مر قبل عشر سنوات)

مقلع مهجور

هو نوع من الكهوف الفسيحة . المصابيح في الحائط . وجمهرة صامتة من العمال تتجمع على منبر طبيعي اتخذ جان وبنغا واربعة عمال آخرون مكانهم عليـــه في الصف الأول . وقف كل من هيلين ولوسيان . جان يتكلم ولوسيان لم يعد يعير انتباهه لسواه ، وهذا ما كان يثير هيلين على مــا يبدو وقال جان :

– خمسة آلاف الماني ، سيصلون الاثنين وسيظلون بقدر مــا يحتاج إليهم أرباب العمـــل ، ونحن سنقضي نحبنا طيلة هذا الوقت . أيها الرفاق ، لقد عارضت دائماً سياسة التخريب والاضراب . فهي سياسة خرقاء في هذه الفترة لأننا نستنزف فيها قوانا . لقد أخذتم بالرأي المعاكس ، رأي بنغا وصوتم مع الاضراب . وها أنتم ترون الخطر الذي سببه الآن . وأنا أطلب اليكم أن تصوتوا لاستئناف العمل .

يتطلع بنغا نحو جان مذعوراً . ويبدأ الكلام بدوره :

– أيهـــا الرفاق . لن نرضخ بعد شهر من الكفاح والتضحية . لن يدب فينا الذعر بمجيء خمسة آلاف أجنبي .

فيصيح جان :

هذا رائع . إذاً ما علينا أن نفعل ؟

اني اكرر على مسامعكم انهم سيبدأون العمل في مصانعنـا ، ولن يخرجوا منها أبداً . هل لديك مخطط ما يا بنغا ؟

– المقاومة .

– المقاومة كيف ؟

ولم يجب بنغـــا بشيء . وظل الجمهور صامتاً . وينحني لوسيان فوق هيلين ويتمتم :

– هل يعجبك ؟

– أبداً أبداً . فهو يبدو كحيوان واقتراحاته تنم عن الجبن .

ويتجه جان الى بنغا باصبعه ويقول :

– المقاومة كيف ؟

وتمتمت هيلين بين أسنانها :

– جبان ! جبان !

ويحتج لوسيان غاضباً :

– اخرسي ! انت مجنونة ! فمن السهل الانتقاد عندما يكون المرء بلا مسؤولية .

وبدون أن يترك بنغا بناظريه يسأل جان للمرة الثالثة .

– كيف تريد أن تقاوم ؟

فيجيبه بنغا :

– لدينا ما يكفي من المال لتمضية شهر .

فيهتف جان :

– وبعده ؟ بعد الشهر ؟ هل تسمعون أيها الرفاق ؟ ينصحونكم بالاضراب ولا يشيرون الى الطريقة التي يجب الاستناد اليها :

وتمر هنيهة صمت . ثم تقول هيلين بصوت غير مفعم بالثقة :

– لماذا لا نحتل المصانع ؟

ويستدير جان نحوها بغتة :

– مـــاذا ؟

فقالت هيلين بصوت أقوى :

– اسأل لماذا لا نحتل المصانع ؟

يحاول لوسيان أن يسكتها :

– كفى يا هيلين ... انت مجنونة !

ومن على المنصة يهز جان كتفيه :

– الاقتراح لا يستحق مجرد المناقشه . إذا احتللنا المصانع ، يتهموننـــا بخرق حرمة الملكية ، وهذا ما يشكل حجة لاستدعاء الجيش .

هيلين غاضبة الآن وتتكلم بكل ثقة :

– دائمـاً في تراجع ، دائماً في تنازل . علينا أن نعود مطأطئي الرأس . وتتجه نحو الجمهور متابعة :

– هـل ترغبون في ذلك أيها الرفاق ؟ هل تنوون اعتزال الكفاح منذ المقاومة الأولى ؟

وينحني جان الذي يقف على طرف المنصة ويقول لها من الخلف :

– آن الأوان أن تخرسي أيتها الفتاة الصغيرة !

ولكن بنغا الذي شجعه خطاب هيلين التي لم يستقبل الجمهور كلامها استقبالاً سيئاً على ما يبدو تابع كلامه :

– الحق الى جانبها أيها الرفاق . إذا عدنا مدحورين الى المصنع ، نكون قد أضعنا المبادرة ولا يعود باستطاعتنا قط إعلان الاضراب . وبما أن تجربة القوة مفروضة علينا ، فلنقبل بها . فلن يتجرأوا على طردنا عن طريق الجيش . فكل البلاد تبارك جهودنا وتساندنا . هل سنتنازل كأولاد عقلاء ؟ هل يجب أن تدفعنا الى القتال امرأة ؟ وأضع هذا الاقتراح للتصويت : من يوافق على احتلال المصانع .

فقال جان :

– هذا جنون وجريمة .

فصاح بنغا ؟

– الى التصويت .

ويتلكأ الجمهور فترة .

ثم تبدأ الأيدي ترتفع شيئاً فشيئاً . أغلبية ضخمة .

فيسأل بنغا :

– من هو ضد المشروع ؟

فترتفع الأيدي ، من بينها يدا لوسيان وجان .

فقال بنغا :

– لقد قررتم . غداً يذهب كل واحد منكم الى عمله في المصنع . وسننظم عملية الاحتلال في نفس المكان .

على المنصة يقوم جان بحركة كئيبة . ويقفز الى اسفل المنصة في حين بدأ

الجمهور ينسحب . يقترب من لوسيان وهيلين التي تنظر إليه ببسمة الانتصار :

– حسناً ؟ ليس هذا سيئاً بالنسبة لفتاة صغيرة .

فقال جان :

– هذا لا يغتفر .

ويتطلع اليها بصرامة وينضم الى الجمهور .

تتبع هيلين الجمهور الى جانب لوسيان .

كانت وقحة ولكن محرجة :

– بالطبع ، لقد صوت كما صوت آغيرا ،

وقال لوسيان المكتئب برفق :

– ليس من أجل آغيرا .

ولكن ألا ترين يا هيلين عندما يأتي الألمان ؟

– ماذا يحدث ؟

– ستحصل بكل تأكيد أعمال عنف . ولكن لن اشترك قط في أحد أعمال العنف .

المحكمة

هيلين تتحدث ، حزينة وفخورة :

– وأنتم تعرفون أنه حافظ على كلامه . ففي كل حياته لم يشترك في أي عمل من أعمال العنف .

فيقول فرانسوا :

– نعرف ذلك . فقد كان يقول طيلة أيامه « لا يعادل أي انتصار فقدان

نفس إنسانية . »

فقالت هيلين :

– لهذا مـات . مات لأنه أراد أن يبقي يديه نظيفتين حتى النهاية . أراد مع ذلك أن يشترك في احتلال المصنع لأن ذلك خطراً ولأنه كان يريد البقاء مع جان ومعي . كان يحب جان .

ولأول مرة تتجه الى جان وهي تلفظ عبارتها الأخيرة ، وقد تلفظت بها بدون عنف بل برفق لا يرحم ، أثر ذلك في نفس جان تأثيراً عميقاً . وعض على فكيه وصعدت الدموع الى عينيه .

وتتطلع هيلين الى الهيئة من جديد :

– ومضى كل شيء على مـــا يرام ، في اليومين الأولين . وفي اليوم الثالث ...

شهادة هيلين (عمّا مرّ قبل عشر سنوات)

منجم البترول

المصنع تم احتلاله . البوابات موصدة . المضربون يقومـــون بالحراسة في طرف المصنع يقوم بنـــاء طويل مسطح كان بمثابة المصح . تقف هيلين مع لوسيان قرب الباب . يبدو انها مسرورة .

– هذا رائع يا لوسيان . يا له من نظام .

– جان هو الذي نظم تدابير الحراسة .

– بالطبـع . هل هو دائم الغضب علي هذا الجان ؟

– لم يقل لي شيئاً .

وقالت هيلين بشيء من الغيظ :

ـ آه

وفجأة ، يأتي صوت فيرفعا رأسيهما .

ـ الجنود !

ويصيح أحد العمال الشباب وقد تسلق الى اعلى البناء ، يده ممدودة نحو مدخل المصنع : « الجنود ! الجنود ! »

جلبة . وحركات مختلفة بعض الرجال يخرجون من الابنية . وآخرون يركضون نحو البوابات .

ويسمع الصياح .

ـ ما هذا ؟

ـ الجنود !

ـ انهم يرسلون لنا الجيش .

ـ الجنود ! الجنود !

يصعد الرجال الى السطوح ويشيرون بأيديهم صائحين .

ـ الجنود ! يأتون من الجانبين !

ويبدأ الاضطراب حتى يصبح جنونياً . يخرج جان وبنفا من بناية يحيط بها جمهرة تتضخم شيئاً فشيئاً .

يسمع صوت جان منادياً من وسط الجمهرة :

ـ ليس كلكم معاً ! وعليكم بالصمت والهدوء !

وفي وسط الجمهرة تتعلق هيلين بعصبية بذراع لوسيان ؛

ـ أنا . اني ..

فيقول لوسيان :

ـ هدئي من روعك يا هيلين !

يتحدث جان في الصمت الذي عاد من جديد :

– لم يسعفنا الحظ ولكن ما علينا أن ننحي باللائمة على أحد . والآن . علينـــا أن ننسحب من هنا . لا سبيل الى المقاومة : ليس لدينا أسلحة وستحصل مجزرة خطيرة . ولكن ما علينا قط ان نظل هنا : إذ سيوقفوننا ويركلوننا . قفوا صفوفاً ! بسرعة !

يتردد الجمهور فترة ثم تنتظم الحركة وينتظم الجمهور في صفوف ثلاثة .

فيصيح جان :

– كبار السن في المقدمة !

فيطيعه الجميع . ويضيف :

– والآن افتحوا البوابات .

يذهب بعض الرجال الى البوابات فيفتحونها .

يقترب جان من شيخ ذي شعر أبيض يقف في الصف الأول :

– انت ايهـــا الشيخ . تقدم الى الأمام . قل لهم بأننا خارجون واذا سمحوا لنا بالمرور سنستأنف العمل غداً . وليرافقه ثلاثة متطوعين .

يخرج ثلاثة رجال من بين الصفوف ويتجهون نحو البوابة، محيطين بالرجل المسن . في باحة المصنع الكبرى ، اصبح جميع العمال مصطفين .

ويقترب جان من لوسيان وهيلين :

ويبتسم للوسيان :

– والآن يا لوسيان هل انت على ما يرام ؟

– جان هل تظن انهم سيطلقون النار على الاشخاص ؟

فقال جان بحركة الغافل :

– حظ من حظين .

تتطلع هيلين نحو جان بنوع من الحقد .

وترتجف شفتاها . وتقول بصوت مخنوق :

– ها انك تنتصر !

ينظر اليها جان صامتاً لفترة طويلة :

– كلا . لم انتصر .

يتطلع كل منهما للآخر طويلاً وكأنهما قد أخذ واحدهما بالآخر . وتتحرك هيلين لحظة نحوه ، ثم تتراجع فجأة الى الوراء وترتمي باكية بين ذراعي لوسيان :

– اني امقته ! لا أريد بعد أن أراه !

في هذه اللحظة تحصل جلبة وصيحات :

– ها هم قادمون ! قادمون !

يعود الرجل المسن والثلاثة الذين رافقوه الى المصنع . يتقدم نحوهم كل من جان وبنغا ولوسيان وهيلين .

– انهم يقبلون . إلا أنهم يحملون أمــــراً بتوقيف آغيرا ، ولوسيان دراليتش والممرضة . لقاء هذا الشرط سيسمحون لنا بالمرور .

همهمات من جانب الجمهور تحتج . يرفع جان يده طالباً الصمت .

– يحملون أمراً باعتقالنــا ، ولكن بإمكاننا الإفلات سنخرج عن طريق المجارير . هيا اذهبوا .

يبدأ الصف بالمسير ويجتازان البوابـــة يقترب بنغا من جان وهيلين ولوسيان .

ينظر إليه جان قائلاً له :

– ماذا تنتظر ؟ فهم لم يذكروك .

فقال بنغا :

– سأبقى اذا بقيتم انتم .

– أأنت مجنون : إذا ألقي القبض علينا ، سيحتاج الرفاق إليك .

وبينما كان العمال يغادرون المصنع ، يقترب كل من جـــان ولوسيان من البوابــة الحديدية وينظرون الى الصفوف وهي تسير نحو رجال الجيش الذين احاطوا بهم واجمين بجانبين أسلحتهم . تبدو على لوسيان إمارات القلق . فيسأل :

– أتظن أن هذا فخ ؟

– لست أدري . وعلى كل حال، كان الشيء الذي بإمكاننا أن نقدم عليه.

يتطلع الثلاثة بصمت نحو الصفوف التي تتابع سيرها فيقول جان من بين أسنانـــه :

– وددت لو كنت أسن بدقيقتين .

يمرّ طابور العمال الآن بين الجنود المتراصفين على خطين . لم يبـد الجيش أية حركة .

يبتعد العمال . يأخذ جان هيلين بذراعها ويومىء الى لوسيان . وبـــدا وكأنه جن من الفرح .

– لقد سمحوا لهم بالمرور ! لقد سمحوا لهم بالمرور !

وبدا أن لوسيان يجاريه سروراً .

وبدت هيلين محافظة على عصبيتهـــا ، ولكنها ارتاحت بعض الشيء ! ويصيح جان :

– الى الجارير الآن !

يجر هيلين وهو يركض . ويركض لوسيان الى جانبهما .

هيلين تتحدث :

– لقد خرجنا عبر المجارير واقتدتها الى بيت سوزان . امضينا فيه ليلة ثم رافقتنا الى مزرعة عمها .

شهادة هيلين (عما مر قبل عشر سنوات)

احدى الطرق المؤدية للحقل

لوسيان وهيلين وجان يتنزهون في الحقل . هيلين تتوسط الرجلين ويمسك كلاهما بذراعها . تبدو من ورائها مزرعة سوزان يسمع صوت هيلين : « لقد تصالحت مع جان وكنا نذهب سوياً للنزهة هو ولوسيان وأنا أما سوزان فكانت تؤثر البقاء في المزرعة » .

تقصد هيلين وجـان ولوسيان طريقاً يصل الى التلال . يصعدون التلال سالكين طريقاً ضيقة . ثم يتوقف لوسيان :

– هنا بإمكاننا المرور بسهولة :

فتسأله هيلين :

– هل هذا عميق ؟

فيجيبها لوسيان :

– سيصل الماء الى ركبنا فقط . تبدي هيلين امتعاضها .

فيقول جان :

– وهل في ذلك ضير ؟

يجلس ، يخلع حذاءه وجواربه ويشمر بنطلونه الى مـــا فوق ركبتيه .

ويفعل لوسيان على غراره وتقول هيلين :

– قد يكون الماء بارداً .

فقال لوسيان :

– سأحملك .

– أنت ؟ حاول قليلاً .

تتحدث هيلين الى لوسيان بسخرية ملؤها الحنو كما لو تتحدث الى شقيق لها . يأخذها لوسيان بين ذراعيه ويرفعها بصعوبة :

ويقول وهو يتركها :

– أوف .

وتضحك هيلين :

– لا بأس ، سأجتازه وحدي .

يعود جان فينهض ! ينظر الى هيلين بوجه أقرب الى القساوة :

– أنا سأحملك .

فقالت هيلين :

– انت ؟

تتطلع الى جان بنوع من التحدي .

فيقول جان بلهجة المتكلم من بين أسنانه :

– ألأنه ليس لدي سوى ذراع ، هذا يكفي . وستتعلقين بعنقي .

كان لوسيان قد وصل الى ضفة الماء . هيلين وجان يتبادلان النظرات ولا شيء غير التحدي في اعينهما ويصيح لوسيان :

– ماذا ؟ أتصلان ؟

فقالت هيلين :

– ها نحن نستعد .

ثم تضيف مخاطبة جان :

– ماذا تنتظر ؟

تأتي اليه وتحيط بذراعيها عنقه ، يضع جان ذراعه اليسرى تحت ركبة هيلين ويرفعها كالريشة . يدخل الماء . يشد وثاقها . ترتاح قليلاً وتلقي برأسها على كتفه . ثم تنهض برأسها فجأة وتنظر اليه بغير عين الصديق . لقد خجلت من تهاونها . إن الجاذب الذي لديها تجاه هذا الرجل القاسي القوي قد تحول الى نفور العذراء من الذكر .

– اتركني ! اتركني !

يتطلع إليها جان بوجه ملؤه السخرية والقساوة .

– أتركك ؟ ولدي الماء فوق ركبتي .

تبدأ هيلين بالتململ .

فيشدها إليه . تضربه بقبضة يدها على صدره وعلى ظهره .

– اتركني ! أقول لك أن تتركني .

لوسيان وكان قد وصل الى ضفة النهر ينظر اليها ضاحكاً . ويصيح :

– امسكها جيداً ! امسكها جيداً ! ها أنا أصل .

يعود الى الماء ، ولكن جان وبدون أن يترك هيلين يحث الخطى فيصل الضفة الأخرى . يلقي هيلين على الأرض .

تبتعد بضع خطوات وتقول بلهجة جافة :

– إني أرتاح ممن يحملني .

ينقل الرجلان حذاءيهما ، يتابعان نزهتهما مع هيلين ويتسلقان فوق تلة . ما أن يصلوا الى التلة حتى يجلسوا ويتطلعوا الى المشاهد . من بعيد يرون دخان المدينة والمصانع وآبار البترول . وتسمع هيلين :

– لقد كان أقوى مني . وكان عليّ أن أتحدّاه كل الوقت .

تجلس هيلين بين جان ولوسيان ، تراقب جان بنوع من الحقد ، ثم تقول هازئــــة :

– بالإجمال ، لست شجاعاً فحسب ، بل انك متين البنية أيضاً ؟

فقال لوسيان :

– هو قوي كثركي .

وتقول هيلين بضحكة قصيرة :

– ماذا ؟ انه رجل . اذاً لماذا تنادي بسياسة التسليم .

ينظر جان اليها بحزن ويجيب ببطء كما لو أنه يأسف على ما يقول :

– أنا لا أنادي بسياسة التسليم .

– ولكنك ضد الاضراب .

فقال جان :

– في الوقت الحاضر نعم . وضد التخريب . وقد رأيت ما جنته سياسة الاضراب. فليس علينا ان نهاجم شولشر وجلاوزته . فهم أقوياء والحكومة تساندهم بشرطتها وجيشها بإمكانهم ان يطردونا من المصانع .

وأن يبيدونا .

فتسأل هيلين :

– إذاً ماذا ؟

ولم يجب جان هيلين مباشرة . بل يخاطب لوسيان :

– أجل يا لوسيان . وددت أن أحدثك عن هذا .

فقالت هيلين وقد جرحت في كبريائها :

– هل أتطفل عليكما ؟

لم يلاحظ جان اضطراب مزاجها . ويقول بلا مبالاة :

– كلا ، ابقي هنا .

ثم يخاطب لوسيان من جديد :

– لوسيان ، آن الوقت لتبديل السياسة . فالأجور بخسة . والفلاحون يستدينون في سبيل البقاء . والمدن ساءت تغذيتها . نحن في وضع ثوري ستسنح الفرصة بعد خمس سنين أو عشر . وليس علينا أن نقاوم شولشر ، بل علينا أن نقاوم حكومتنا .

فيسأل لوسيان :

– يعني ماذا ؟

يضرب لوسيان على الأرض هازلاً .

يبدو أنه مأخوذ بالفكرة ومشغول البال كما لو أنه يعرف ما سيحصل ويخشاه .

ويهتاج جان ويزداد حيوية وهو يتكلم . وهيلين التي نسيت ممازحتها قبل قليل باتت تصغي إليه بدون أن تحول عنه ناظريها .

ويقول جان :

– إذاً ، علينا تغيير السياسة . لا إضراب بعد اليوم . لا اضطراب في المصنع . بل لجنة مركزية ، تنظم حزباً ثورياً سرياً مع فروع له في جميع

المصانع . نحن نعد الآلة هل تفهم ؟ آلة هائلة بإمكانها إذ تأزف الساعة أن نقوم بالاضراب العام وبثورة مسلحة . على بنغا وتوريتز أن يأتيا بعد غد للتداول في الأمر. وبعد نحو خمسة عشر يوماً،يصبح بإمكاني العودة إلى المدينة ومواصلة العمل .

– هل أنت موافق ؟

يتابع لوسيان الضرب على حذائه دون ان يجيب .

فتبدو الدهشة على وجه جان . فيكرر :

– أموافق أنت ؟

يقابله لوسيان بالصمت .

فيسأله جان :

– ما الذي لا يسير على ما يرام ؟

ير فع لوسيان رأسه . وعليه سيماء الاكتئاب ويتكلم بتردد :

– جان . اني ... لا أستطيع المسير معك .

– ولكن لماذا أيها الأخ الصغير ؟

فقال لوسيان :

– أنت تعرف نتيجة مخططك . آلاف القتلى من الجانبين . لا ... لا يمكنني أن أتحمل الفكرة بأني مسؤول عن هؤلاء القتلى. أنا أمقت الضعف يا جان .

– لكنك كنت موافقاً على الاضراب .

– الاضرابات . كانت نوعاً من المقاومة السلبية . فلم يحصل هناك قتلى . ثم اني كنت ضد احتلال المصانع .

يومىء جان إلى المدينة والمصانع التي تطل في البعيد .

– انظر هناك يا لوسيان ! آلاف العمال حكم عليهم بالبؤس . أليسوا ضحية العنف هم أيضاً ؟

– وإذا لم تكافح العنف ، ألا تكون شريكاً فيه ؟

– أريد أن أكافح العنف ولكن على طريقتي . أنا لست رجل عمل فأنا أكتب . أريد أن أناهض العنف بقلمي .

ويضحك جان ببعض الانزعاج .

– لا تريد أن تبتل طبعاً !

يتطلع إليه جان باكتئاب ولا يجيب . يتطلع جان نحو هيلين تطلع اليائس من قضيته :

– ولكن قولي له أنت ! ألا ترين انه على خطأ ؟

تنظر هيلين نحو الاثنين ، توشك أن تتكلم ثم تسكت . وتمعن النظر الى جان ، ثم تتجه نحو لوسيان بوجه متردد . في النهاية ، تخفض رأسها وتقول بصوت خافت وكأنها تتحدث إلى نفسها :

– لا أعرف .

ينتصب جان فجأة ويقول بغضب :

– أنتما مغفلان !

يبتعد . تتطلع هيلين نحو لوسيان بحنان . يبدأ لوسيان بكلمتها ، وكأنه يود إقناع جان :

– هذا صحيح . أريد دائماً أن أظل نظيفاً . ألا نستطيع الدفاع عنهم بدون ألا نتلوث ؟ هل يجب أن نريق الدماء ؟ أودّ ... أودّ أن أعمل ما هو سوي .

فتقول هيلين :

– ولكن ما هو السويّ ؟

تضع ذراعاً على كتفي لوسيان :

– أراك سريع التأثر إلى هذا الحد .

يعود جان إليهما . وقد هدأ روعه مغتماً من سورة غضبه يجلس في مكانه ويبتسم للوسيان الذي يبتسم له :

– انتبه . حقاً اني غضوب . ولكن أريد أن أعرض عليك اقتراحاً في هذه المشاكل ، أنت محق بأن لا مناص من تلوث الأيـــدي . ولكن هناك حدوداً . وأنا كذلك لا أحب العنف . إذا ما فكرت بأني سأغرق يومـــاً بالدم حتى مرفقي ..

يتطلع إلى لوسيان بوجه المتوسل ويتابع :

– تعال معنا يا لوسيان . لا أطلب إليك سوى أمر واحد : عندما نريد أن نلجأ إلى وسائل غير سوية أو دموية ستكون معنا لتقول لنا : «قفوا» . أنت وحدك تستطيع ذلك لأنك طاهر .

تعود هيلين فتلبس وجهها الساخر ، لكن الدهشة باديه عليه وتقول :

– بالاختصار سيكون ضميركم ؟

– إذا أردتم . فهل تقبل يا لوسيان ؟

يتطلع لوسيان إلى جان بارتياح :

– هكذا ، أقبل !

يمد جان يده نحو لوسيان مصافحاً من فوق ركبتي هيلين :

– إذاً ، أبسط كفك .

يمسك لوسيان بيد جان :

– أبسط يدك .

تنظر هيلين مشدوهة إلى اليدين اللتين تكادان تلامسان ركبتيها . كانت

يد لوسيان بيضاء رقيقة طرية . وكانت يد جان كثيفة مليئة بالعقد مكسوة بالشعر حتى الساعد ذات أصابع ضخمة قوية .

وقال لوسيان :

– هاتي يدك أيضاً يا هيلين .

تقدم هيلين يدها وتضعها على يد جـــان ، ثم تسحبها فجأة وتمسك بيد لوسيان وتضغط عليها .

المحكمـــة

تتابع هيلين وكأنها تحدث نفسها :

– كنت أحبهما كلا الاثنين ، ولكن جان كان يخيفني . كان قاسياً جداً، ووجوده كان عبئاً عليّ . كان يشعر بذلك ، ويظن اني أغاويه وبما انه يعلم أن لوسيان يحبني ، فلم يحدثني أبداً . كنت أحب لوسيان حبـــاً رفيعاً ورضيت بأن أصبح زوجة له . وعشية الزواج ..

شهادة هيلين (عما مر قبل عشر سنوات)
مزرعة سوزان

سوزان وهيلين وجـــان جميعهم قاعدون قرب الموقد . هو المشهد الذي قصته سوزان ولكن كما تراه هيلين .

جان ينقر على ذراع كنبته . هيلين تنهض . تنظر إليه بارتباك . تذهب فتضع يدها على كتفه ، ثم تنتبه ، فتسحب يدها وتقول بنوع من الخجل :

– إلى اللقاء يا جان .

ويجيب جان بدون أن يرفع رأسه :

– إلى اللقاء .

يقترب لوسيان بدوره . يضع يده على كتف جان .

– إلى اللقاء . .

يرفع جان رأسه نحو لوسيان ويبتسم :

– إلى اللقاء ، أيها الأخ الصغير .

سوزان تتطلع إلى المشهد وعلى وجهها يبـــدو التوتر ، كما لو أنها تتربص بأحـــد . لوسيان وهيلين يبدآن بالصعود . في وسط الدرج ، تتوقف هيلين وعليها إمارات الألم . فيسألها لوسيان :

– ما بك ؟

– لا شيء . تعال .

تتابع هيلين سيرها . ما ان تصل إلى الممشى حتى يوقف لوسيان هيلين مبتسماً ، ولكن بنوع من القلق في أعماق عينيه :

– هيلين قولي لي على التو لماذا تحبينني ؟

وتضحك هيلين بإحراج محتجة .

– كلا يا لوسيان ليس على المدرج .

– قولي لي ذلك في الحال .

تضحك هيلين قليلاً وتمسك بذقنه وتقول له وكأنها تحدث نفسها :

– لأنك ملاك .

فقال لوسيان :

– أظن اني لن أستطيع أبداً أن أحب سوى الملائكة .

يدخل الاثنان الى غرفتها .

صبيحة اليوم التالي
غرفة هيلين ولوسيان

تفتح هيلين الباب لتخرج . والفرح باد عليها كما تكتنفها مسحة هدوء وتنادي لوسيان :

– هيا تعال .

يقترب لوسيان منها ، محرجاً .

– هل تعرفين ، إن اللحاق بهم يزعجني . يبدو أننا مغفلان .
– إن الأمر كذلك في جميع الزيجات .

تجر هيلين لوسيان بيده . ينزلان الدرج . وفي الغرفة السفلى ، كانت سوزان وجان ينتظرانهما باسمين . هيلين ، وكأنها تتحدى ، تسير أمام لوسيان الذي بدا متضايقاً . تبتسم سوزان بوجه المنتصرة وتسأل :

– هل نمتما جيداً ؟

فقالت هيلين :

– نعم وأنت ؟

فقال جان :

– لقد نمنا معاً .

ويبتسم هو الآخر ، ولكن عليه إمارات التحدي والاكفهرار . سر لوسيان للخبر . يقترب نحو جان ضاحكاً :

– بلا مزاح ؟ أنتما ... أنتما أيضاً ؟ إذاً فلم تعد هيئتنا مضحكة .

لم يترك جان هيلين بعينيه :

– أنتما اللذان أعطيتمانا الفكرة .

لم تعد هيلين تبتسم . تنظر إلى جان بنوع من الذهول الجاف .

هيلين تنظر إلى جان بنفس الذهول الذي قابلته به في المزرعة . جان مطأطىء الرأس يتطلع بين رجليه . تعيد هيلين نظرها على الهيئة وتقول :

واستمرت الحياة . وعدنا إلى المدينة ، بدأ جان بتنظيم النشاط السري . كانت هناك لجنة . لقد عرفتموها جميعاً بدون أن تعرفوا أعضاءها . ومن هذه اللجنة كانت تأتيكم الأوامر وهو الذي نظم الثورة وكان جان ولوسيان من أفرادها . وكذلك بنغا . وهناك ثلاثة رفاق آخرون ماتوا أيضاً : بارير، دبيشي ، ولانجي . كانت الاجتماعات تعقد عند سوزان وجان . وفي أحـــد الأيام وأنا ذاهبة مع لوسيان .

شهادة هيلين (عما مر قبل ثماني سنوات)
أحد الشوارع

تسير هيلين ولوسيان ممسكين بذراع بعضهما . يدور لوسيان في شارع افقي .

تبدي هيلين دهشتها :

– إلى أين تذهب ؟
– عندي موعد مع كارليه . عليه أن يقدم لي تقرير لوبيك عن فروع المنطقة الجنوبية .

– وأين ينتظر ؟
– أمام بائع الأحذية في شارع فردينان .

فقالت هيلين :

– هذا غريب . الزاوية مشار إليها .

فقال لوسيان :

– أعرف ذلك . فبنفا هو الذي حدد الموعد .

يتابع لوسيان وهيلين سيرهما .

أمامهما رجل شاب يحمل حقيبة صغيرة في يده يتظاهر بالتطلع إلى واجهة أحد محلات الأحذية . من الناحية الثانية للشارع ، يراقبه رجلان بإمعان .

يأخذ لوسيان إشارة مكان الرجلين . يأخذ هيلين بذراعها ويرغمها على التوقف أمام محل للمجوهرات .

– هناك شرطيان يراقبانا .
– أنت متأكد ؟

فقال لوسيان :

– أجل علينا تنبيه الصديق .

في هذه الفترة يقطع الشرطيان الشارع ويقتربان من الرجل حامل الحقيبة الصغيرة . يراهما الرجل من خلال زجاج الواجهة فيطلق ساقيه للريح . يطلق أحد الشرطيين النار . يسقط الرجل الشاب ، تقع حقيبته وتنفتح وهو يسقط فتتناثر منها الأوراق .

لم يتحرك لوسيان وهيلين . يديران رأسيهما نحو الرجل الصريع . هيلين تتحرك كما لو انها تشير إليه . لوسيان يمسك بها .
– لا تتحركي . علينا إبلاغ اللجنة فوراً .

بيت موزان

جان وبادير ودلبيش ولانجي وقوفاً يتبادلون الحديث . عليهم سيماء

الصرامة والانشغال . يقرع الباب .

فيقول جان :

– من هذا ؟

فأجاب لوسيان :

– نحن !

يفتح جان الباب . يدخل لوسيان وهيلين لاهثين مرتبكين . ويقول لوسيان :

– لقد قتلوا وكيل الارتباط .

– يا لله .

فتقول هيلين :

– أراد ان يفر بنفسه حينما رأوه ، ولكنهما أردياه قتيلاً . حين وصولنا تماماً .

ويسأل بادير :

– ولم ينتبها لوجودكما ؟

– رأيتهما في الوقت المناسب . فلولا فارق عشر ثوانٍ لكنا وقعنا في قبضتهما .

وجلس دلبيش مكفهر الوجه .

لقد حصلت حوادث كثيرة منذ شهرين . لا بد وان أخبارنا تصلهم .

فيسأل جان :

– أليس بنغا هو الذي عيّن الموعد ؟

فيقول لوسيان :

– أجل انه هو .

يبدي جان حركة غاضبة :

– هذه المرة تبدو الأمور واضحة . انتبهوا : قبل سنتين عندما احتل الجيش المصنع لم يوقفوا بنغا . وعندما كنا مختبئين عند سوزان ، ولم يأت سوى بنغا لمقابلتنا . وبعدها بخمسة عشر يوماً أتى رجال البوليس للتفتيش . وكنا قد غادرناه قبل ليلة . وهذه المرة الثالثة منذ شهرين فيها يقتل وكيل الارتباط في موعد حدده بنغا . وأخيراً هناك شيء آخر : قبل أيام وجد بادير على طاولة بنغا كلمة قصيرة من رجل يدعى لوني ، يشكره فيها على المعلومات القيمة التي قدمها له . بالنتيجة ؟ ليس مذنباً ؟

جان يسأل رفاقه بعينيه. يومىء لانجي ودلبيش برأسيهما بالايجاب. يشعل دبيش غليونه ويقول بهدوء :

– كنت أشك بأنه مذنب .

يتجه جان نحو هيلين :

– وأنت يا هيلين ؟

– لست أدري . أظن انه مذنب .

يتفجر لوسيان فجأة وقد اعتراه الاضطراب :

– ليس بإمكانكم !.. ليس بإمكانكم ان تحكموا على رجل في غيابه . اعطوه وسائل الدفاع عن نفسه .

فيقول جان :

– مستحيل . إذا استجوبناه هنا وكان مذنباً فلا يعود بإمكاننا ان نقتله، لأنه يذهب تواً إلى الشرطة ، كما وان تصفيته هنا عسيرة جداً .

فيقول لوسيان بلهجة المتفرغ :

ـ انتظروا قليلاً . فلنرغمه على كشف نفسه بدون ارتكاب خطأ .

يتحدث جان بلهجة قاطعة :

ـ أظن ان القرار قد صدر . فمصير الحزب بأسره في الميـــدان . فمن يوافق على تنفيذ الاعدام فوراً ؟

يرفع كل من لانجي وبادير ودلبيش أيديهم .

ولا يتحرك لوسيان وهيلين .

فيقول جان :

ـ أربعة أصوات من ستة .

فيقول لوسيان :

ـ وإذا كان بريئاً ؟

يهز جان كتفيه . تعقب ذلك هنيهة صمت . ثم يتابع جان حديثه :

ـ أنا آسف . ولكن على أحدنا ان يقوم بهذه المهمة القذرة . من؟ صمت.

فيقول جان :

ـ فليكن ذلك بالقرعة . فستثنى هيلين بالطبع .

أما لوسيان . .

تتكلم هيلين بغضب :

ـ عليه أن يقترع أيضاً . إذ ليس بإمكاننا أن نعمل معـكم ، ما لم نحرز ثقتكم الكلية .

فيقول جان :

ـ هو ضد الإعدام .

– لقد صوتت اللجنة . وما عليه سوى الرضوخ .

– فليكن .

جان يقسم ورقة إلى خمسة أقسام . على أحد الأقسام الصغيرة يرسم صليباً بقلم الرصاص . يطوي الأوراق ويضعها في فنجان .

– أربعة أوراق بيضاء . والخامسة تحمل صليباً : فمن يسحب الصليب توكل إليه المهمة .

يضع جان الفنجان على الطاولة يمد دلبيش يده ويأخذ ورقة فيفضها بعصبية ، يبسطها على الطاولة :

– بيضاء .

يسحب جان ولوسيان معاً . يفض لوسيان ورقته بأسرع مما فعله جان ويقول بصوت لا نبرة له :

– لا فائدة من المضي في ذلك .

يرمي ورقته على الطاولة . تلتقطها هيلين وتريها الآخرين . ترجف يدا هيلين . يتصلب وجه لوسيان . ويقول :

– أريد أن أتنفس الصعداء .

يتجه لوسيان نحو الباب . يقوم جان بحركة ليشد على يده ولكنه لا يراه أو يتظاهر بذلك . يفتح الباب . في هذه اللحظة تفتح سوزان الباب الآخر ، باب غرفة الغسيل . يستدير جان نحوها ويقول ببساطة :

– لا حجة .

داخله متواضع . ولكنه أيسر من بيت سوزان وجان . الوقت ليل يجلس لوسيان مرفقه على الطاولة ، ذقنه بين يديه ، منكمش الوجه . وراءه هيلين قد امتقع لونها تخرج من الدرج مسدساً مغلفاً بخرقة . تعود إلى لوسيان فينظر إليها بوجه لا حراك به . فيقول :

– لا جدوى .

تظل هيلين واقفة قربه ، بدون أن تفهم .

يكرر لوسيان :

– لا جدوى . لن أقوم بذلك .

ينهض ، يأخذ المسدس من يد هيلين ويعيده إلى الدرج . لكنه يعود نحو هيلين ويمسكها .

– لا أريدك أن تظني بأني جبان .

فتقول هيلين برفق :

– أنا أعلم انك لست جباناً .
– أنت لا تعرفين كم يلزمني من الشجاعة .. سأقدم استقالتي غداً .

فتقول هيلين مرتبكة :

– ولكن وافقت .

– لم أفكر ما فيه الكفاية . لا أريد ... لا يمكنني أن أطلق النار على شخص بريء .

– أتريد ان يفشى سر المنظمة بأسرها ؟
يسير لوسيان بضع خطوات ويقع على كنبة .

– لا أعرف ... لا أعرف إلا اني لن أقتل بنغا .

تود هيلين الاعتراض . يقاطعها لوسيان :

– كيف سأتطلع إلى نفسي يا هيلين إذا قتلت هذا الرجل وكان بريئاً ؟

تنظر إليه هيلين بنوع من القساوة :

– بأي عين تنظر إلى نفسك إذا أوقف جان غداً ؟

ينهض لوسيان ويخرج بدون أن يجيب . تبقى هيلين وحدها تذهب إلى الخزانة وتأخذ المسدس .

المحكمة

هيلين تواجه الهيئة :

– في هذا اليوم كنت عند جان .

كنت أريد أن أعدم بنغا بنفسي . ولم يقبل جان بذلك . فمن أجل لوسيان قتل بنغا .

تتدخل سوزان من مكانها :

– كان ذلك بغية القضاء عليه . وإذا كان لوسيان قد استقال فكنت ستتبعينه . كان جان يريدك أن تظلي تحت يده .

هيلين مرتبكة تنظر إلى سوزان باشمئزاز . تهم بالإجابة فيسبقها جان .

– هيلين . ما عليك حتى أن تجيبيها .

فترة صمت . يومىء فرانسوا لهيلين :

– تابعي .

فتقول هيلين :

– في صبيحة اليوم التالي عثر على بنغا ميتاً على إحدى الطرق المؤدية للحقل . بعدها بخمسة عشر يوماً ...

شهادة هيلين (عما مر قبل ثماني سنوات)
بيت سوزان

اللجنة تعقد اجتماعاً . الجميع يصغون بوجوه متعبة دلبيش يختم حديثه :

– ... أما « لوني » الذي شكره فهو رجل اقتصاد بلجيكي . كان بنغا يرسل له معلومات عن ميزانيات عمال البترول .

فيقول لانجي :

– إذا ؟ لقد كان بريئاً ؟

يومىء دلبيش برأسه بالايجاب. الجميع ينصتون فترة طويلة. لوسيان ينظر بغيظ أليم نحو جان الذي راح ، غير آبه ، يلف سيكارة ، بيده السليمة .

ويتمتم لوسيان :

– نحن ... إنما نحن ...

فيقول جان وهو ينظر إلى وجه لوسيان :

– لا مجال للندم على عمل أقدمنا عليه .

ثم يخاطب الآخرين :

– نظراً لما كنا نعرفه وللخطر المحيق بنا ، لم يكن بوسعنا ان نفعل شيئاً غير ذلك وكان من الإجرام ان نتصرف بخلاف ذلك . لقد مات بنغا في المعركة . هل توافقون على إهمال القضية ؟

فيقول بارببر

– أنا موافق .

ويقول دلبيش :

– أنا موافق .

يومىء لانجي برأسه للموافقة فيسأل جان :

– هيلين ؟

تتردد هيلين لحظة وقد اشتبك نظرها بنظر جان . وهمّت بأن تقول .. ثم تتمالك نفسها وتقول :

– موافقة .

فيقول جان :

– حسناً . يبقى هناك وجـه القضية الآخر : من ذا الذي وشى بوكيل الارتباط ؟

وبينما كان يتكلـم ، كان وجه لوسيان قد اكفهر وتصلب ، وراح ينظر الى جـــان بمزيج من الدهشة والإعياء وكأنه يقول في نفسه : « أي مبلغ قد بلغ ! »

المحكمـــة

تتابع هيلين شهادتها :

– فمنذ ذلك اليوم قد وقع شيء بينهما . كانا يلتقيان دائماً ، ولكني كنت أشعر بأن كلاهما يكره الآخر .

في نفس الوقت الذي كانت تتكلم فيـه سمعت همهمات بقوة متزايدة ، ثم غمرت الجلبة صوت هيلين . ويسمع الصياح :

« الى الموت . الى الموت . » ويتجه من في القاعة نحو البـاب الذي يفتح فجأة يظهر نحو مئة من الثوار المسلحين صائحين : «إلى الموت ! إلى الموت !» قاصدين جان . يحاول فرانسوا أن يتجه إليهم، ولكن الجمهور يقفل الممرات.

فيصيح فرانسوا :

– ماذا تريدون ؟ أخلوا القاعة !

يصرخ عملاق قد اعتمر قبعة امرأة ذات ريشة بكل قوة :

– نريد رأس الطاغية .

– نحن نحاكمه الآن . انها محكمة هنا . أطلب إليكم أن تسكتوا أو أن تخلوا القاعة .

ومن ثم ، ينحني فرانسوا نحو داريو :

– اذهب وجيء بالامدادات ، وإلا فستسوء الحالة .

يوافق داريو بإشارة من رأسه ويخرج وسط جلبة الجمهور .

فيصيح أحد الثوار .

– لا حاجة للحكم . فهو لا يستحق ذلك . اقتلوه في الحال !

فيصيح فرانسوا :

– قبل أن نقتله ستطأون عليّ .

آمركم مرة أخرى بإخلاء القاعة :

تعود الضوضاء ، بمزيد من العنف .

الحضور أنفسهم قد تأثروا بحمّى الجمهور . الأصوات تصيح من كل مكان :

– الحق معهم !

– اشنقوه !

– يا لها من مهزلة هذه الحاكمة !

– كفى ثرثرة !

يصيح الثائر الذي اعتمر قبعة امرأة في وجه فرانسوا :

– لا نتلقى الأوامر منك . سلمنا الطاغية ثم يتحرك وهو يستل بندقيته:

– دعونا نمر أيها الرفاق . نريد أن نأتي به !

يحاول الجمهور ان يفسح المجـــال ليسمحوا للثوار المسلحين بالتقدم نحو المنصة . بعض المحلفين ينهضون . سوزان عليها سيماء الانتصار الى هيلين التي انهارت . يصل الثائر ذو القبعة على بعد خطوات من المنصة . وفي لحظة من الهدوء النسبي ينهض جان ويقول للثوار :

– أتريدون أن تجعلوا مني شهيداً ؟

فيصيحون في وجهه :

– اخرس ! أيها الخائن . اسكتوه !

ينهض جان . يتقدم في الفسحة المخصصة للشهود بمواجهة الثوار والنظارة:

– أو تعتقدون أني أخاف الموت . سلوهم إذا كنت أدافع عن نفسي .

يصل الرجل صاحب القبعة على بعد خطوات من جـــان . يضربه على خده بالبندقية .

جان لا يتحرك ويقول :

– اطلق النار ! أمام انظار العالم كله ستغتالونني وسأموت سعيداً .

يتلكأ الثائر . يغتنم فرانسوا الفرصة ليذهب وينتزع منـــه البندقية . ثم يقول :

– الحق الى جانبه . انت لا تستطيع أن تتصور ما ستسيئه إلينا أيهـا الرفيق . نحن لا نود انقاذه بل محاكمته بأيد نظيفة .

فترة من الحيرة في صفوف الجمهور ، يصل عن جانبي المنصة الحرس الذي

استقدمهم داريو ، فيقفون بين جان والمتظاهرين .

يفهم هؤلاء انهم خسروا جولتهم . يسكتون ويبدأون بالتراجع نحو الباب . يهمهم صاحب القبعة قائلاً لفرانسوا :

– أعد لي البندقية .

يعطيه فرانسوا إياها . ينقر الثائر على بندقيته ويقول بنبرة المهدد :

– حاولوا ألا تبرئوه فلا تزال أسلحتنا معنا .

يخرج من القاعة وراء المتظاهرين الآخرين. يترتب الحرس الذين استقدمهم داريو الى جانبي المنصة . يقف فرانسوا وجان على بعد خطوات من بعضهما . ويقول فرانسوا :

– شكراً .

ثم يضيف بعد فترة من الصمت :

– ظننت أنك كنت تريد أن يقتالوك .

– لقد غيرت رأيي .

يعود جان نحو المنصة ، في الفسحة المخصصة للشهود . يتجه نحو المحامي الذي ينظر اليه مذعوراً ويصيح بصوت قوي :

– خلصونا من هذه القذارة . فسأدافع عن نفسي بنفسي .

يتبادل فرنسوا وداريو النظرات وقد انبسطت أساريرهما . ويقول فرانسوا :

– هذا جيد .

ثم يومىء الى هيلين :

– تابعي .

تعود هيلين فتقف بمواجهة الهيئة . يبدو عليها التأثر والتعب وباتت

تتكلم بصوت خافت .

– بعد ذلـــك . وقعت الثورة وأخذني جان كسكرتيرة . وأوكل إلى لوسيان إدارة جريدة « النور » . في البداية سار كل شيء على ما يرام ولكن بعد عدة شهور ...

شهادة هيلين (عمّا مر قبل ست سنوات)

مكتب جان في القصر

تجلس هيلين الى الطاولة . بجوار المكتب الضخم . يقف لوسيان أمام المنضدة . يجوب جـان أرض الغرفة ، في يده حزمة من الصحف . يتكلم بصوت يجهد نفسه يجعله ودياً ، ولكن يبدو أنه غير مسرور الى أبعد حد :

– لا يمكن لهذا أن يستمر يا صغيري . لقد طلبت اليك مئة مرة أن تكف عن الكتابة عن هذا . لماذا تكتب هذه المقالات ؟

– لاني اعتقد بأنها صحيحة .

– انها سابقة لأوانها ! سابقة لأوانها !

– لا يمكن للحقيقة ان تكون سابقة لأوانها !

يهز جان كتفيه بانزعاج . يتابع لوسيان :

– لقد أوليتك ثقتي يا جان . الجميع أولوك ثقتهم. والآن لم يعد بإمكاننا ان نفهم لم تقدم على تأميم البترول . لم تسع لانتخـــاب مجلس تأسيسي . الصحافة ليست حرة . أمن أجل هذا قد قاموا بالثورة ؟

فيقول جان :

– اذا انتخبوا مجلساً تأسيسياً فإن أول مـــا سيقدمون عليه هو تأميم البترول .

فيجيب لوسيان :

– وهذا ما تتمناه البلاد بأسرها . لماذا لا تقدم على ذلك ؟

– قد نتسبب في وقوع الحرب . هذا سابق لأوانه :

يقوم لوسيان بحركة متبرمة :

– المجلس التأسيسي سابق لأوانه . وتأميم البترول سابق لأوانه . والصحافة الحرة سابقة لأوانها !

كيف يا جان ؟ أتريد أن تحكم خلافاً لارادة البلاد بأسرها ؟

فيقول جان بشراسة :

– ولم لا ؟

– في هذه الاحوال ، لا تعتمد علي في مساعدتك . يغادر لوسيان المكتب مسرعاً . يتطلع اليه جان وهو يخرج ، يهز كتفيه ويقع على كنبة منهكاً :

– أليس بإمكانه أن يساعدني ؟ هل عليّ أن أقدم بكل شيء وحدي ؟ هيلين ، أيريد أن يشرح لهم ...

– ماذا ؟

– انه سابق لأوانه ...

فتقول هيلين :

– انت تعرف انه لن يقدم على ذلك .

– نعم ، أنا أعرف . ولكن بحق الله . أنا الرئيس أليس كذلك ؟

آلة طابعة تلفظ الجرائد

العناوين الضخمة :

« مسألة البترول »

« الى متى يؤجل الانتخاب »

« البترول أيضاً » .

« بترول وديمقراطية »

وبينما الجرائد تقع يسمع صوت هيلين . يقول :

– لم يتراجع لوسيان كان جان غاضباً عليه ، ولم يكن يتجرأ على شيء . ونحو هذه الفترة بدأ بالشراب .

مكتب جان في القصر

جان في مكتبه يقرأ عدداً من جريدة النور . عليـــه سيماء مكفهرة غاضبة . يشير الى خادم الغرفة :

– وسكي .

يقدم له الخادم الوسكي فيشرب جان .

يقف جان بالبزة الرسمية .

– وسكي

يقدم له الخادم الشراب فيشرب

في نفس المكتب يرى جان بزيين مختلفين وعلى فترتين متفاوتتين يأمر :

« وسكي . وسكي . » ويشرب .

يقف جان ببزته الرسمية والكأس بيده . يمشي قدماً ولكنه ليس بحالته الطبيعية . يسير نحو هيلين ، يقف أمامها ويلقي بكأسه على الطاولة فيحدث ضجة . يتطلع اليهـــا بحدة . كأنه يريد ان يطلب معونتها ، ولكنه

لا يقول شيئاً .

هيلين تحول رأسها بانزعاج . يسألها جان أخيراً :

– هل تريدين الوسكي .

– كلا .

– لماذا لا تشربين ؟

تسأله هيلين بحزن ، وبرفق قلق :

– وانت يا جان ؟ لماذا تشرب ؟

لم يجب جان بشيء ، يكتفي بضحكة مريرة خبيثة .

ثم يعود الى حديثه ويقول بشيء من الخبث :

– اذا تابع زوجك سأودي به الى السجن ، هل فهمت ؟

المحكمـــة

هيلين تتحدث الى الهيئة :

– وتابع لوسيان . وعندما اتخذ جان قراراتـه حول تصنيع الزراعة ، كان لوسيان قد عاد من جولة في الريف . لقد كان معارضاً بشدة . .

شهادة هيلين (عما مر قبل ثلاث سنوات)
بيت هيلين ولوسيان

لوسيان يكتب في مكتبه . تقترب منه هيلين وتقرأ من فـــوق كتفه . تقوم بحركة .

– لوسيان ! ليس بإمكانك !

– لماذا ؟ القرارات غير عادلة وجائرة .

– عليّ أن أقول ذلك .

– هل تنشر هذا المقال ؟

– منذ الغد .

– هذا سيولع العصيان .

فيقول لوسيان :

– هذا يتعلق بجان .

هيلين تغادر مكتب لوسيان وتجوب أرجاء الغرفة . يتطلع لوسيان إليها بحنو وأسى ويعاود الكتابة .

– هل تتذكر بنغا ؟

– نعم . لماذا ؟

– لقد تسرعنا . وكان بريئاً .

– لا أرى النسبة .

فتقول هيلين :

– تتخذ قرارك قبل الأوان . إن لجان مبرراته ، وقد لا تعلم انت كل شيء . دعه يجرب حظه .

يخفض لوسيان عينيه فوق ورقته ، ثم يتطلع الى هيلين . وأخيراً ، يرفع كتفيه ويمزق الأوراق الموضوعة أمامه :

– سأنتظر . ولكن إذا سارت الأمور سيراً سيئاً ..

فتقول هيلين بصوت ملؤه الإعياء واللامبالاة :

– عندها تفعل ما تريده .

منزلان يشتعلان . يرى الجنود يقتادون طوابير من الفلاحين المساجين . في نفس الوقت يسمع صوت هيلين تقول : « سارت القضية سيراً سيئاً » .

مكتب جان في القصر

هيلين تعمل على طاولتها . جان على مكتبه . يدخل الحاجب لوسيان . تنظر إليـه هيلين بيأس ، جان لا يرفع رأسه . لوسيان يجتاز الغرفة بخطى وئيدة ويقف أمام جان الذي يرضى أخيراً بالنظر إليه .

– أتعرف لماذا استدعيتك ؟

– نعم .

فيقول جان :

– لا تكتب هـذا المقال . لا تنح باللائمة علناً على التدابير التأديبية التي ارغمت على اتخاذها . جريدتـك وحدها لا تمر على المراقبة . هذا دليل على الثقة التي أوليتك إياها . ليس بإمكانك أن تكتب هـــذا المقال في أكثر الأوقات تأزمـاً . بإمكاني أن أكسب هذه المعركة أو أن أخسرها ، لست أدري . غير اني اعلم انك إذا كتبت هذا المقال سأخسرها .

لم يجب لوسيان . يسأله جان بعنف مستمر :

– ألم تعد صديقاً لي ؟

– أنا دائماً صديقك . هل تذكر لماذا انتسبت للجنة ؟ لأوقف في الوقف المناسب عندما تقوم بأعمال عنف لا جدوى من ورائها .

– إذاً ، فقل لي فقط ! حاول أن توقفني ، ولكن لا تكتب !

– أوه يا جان . لقد قلت لك وانت لا تريد ان تصغي إلي .

ينهض جان . يسير خطوات ويقف أمام هيلين .

– هيلين !

ترتعد هيلين وتتسمر في مكانها .

– هيلين ! قولي له بألا يقتل صداقتنا .

لم تقل هيلين شيئاً . تنظر إلى جان بحنو وإعياء .

– اجيبي يا هيلين !

– لن أقول شيئاً يا جان . عليه ان يكتب ما يراه صحيحاً .

فترة صمت . يقف لوسيان مطأطىء الرأس إحدى يديه على مكتب جان . يقترب جان من لوسيان ، يضع يده على المكتب قرب يد لوسيان . ويقول :

– هذا جيد . بإمكانك أن تعود يا لوسيان . ولن تصدر صحيفتك غداً.

– بإمكانك أن تفعل ما تريد : وسيظهر المقال رغم ذلك . لدي عادة العمل السري .

– لوسيان إذا فعلت هذا ...

– سيظهر المقال غداً .

تنتصب هيلين صائحة :

– لوسيان ! جان ! أنتما مجنونان .

تأتي وتقف بينهما . تنظر إلى اليدين الموضوعتين فوق المكتب ، وفجأة ترى يديهما قد تشابكتا فوق ركبتها كما كانتا عليه يوم كانوا على التلة حيث قبل لوسيان بالانتساب للجنة .

وتتبدد الرؤيا . تمعن هيلين النظر إلى اليدين المنفصلتين المسمّرتين فوق

مكتب جان . وتقول :

– ليس بإمكانكما ... ليس بإمكانكما ...

تأخذ بيديها وتحاول أن تجمعهما .

فيسأل جان :

– هل سينشر مقاله ؟

يسكت لوسيان . جان يفلت يده بعنف .

– إذاً ، فهو يعرف ما ينتظره .

يستدير لوسيان بلا إجابة ويخرج مسرعاً ، تتحرك هيلين لتتبعه .

فيقول جان بغلاظة .

– إبقي هنا . لا تزالين سكرتيرتي على ما أظن ؟

تعود هيلين الى مكانها وتتهالك في الجلوس على كرسيها .

يعود جان بتؤدة ويجلس في مكانه .

ويصيح « وسكي » فيقدم له الخادم الشراب .

أحد الكهوف

فيه لوسيان مع أربعة رجال آخرين . يطبعون جريدة صغيرة الحجم على مطبعة تدار بالذراع . عنوان الجريدة : النور . وتحته :

الطاغية . تدمير عشر قرى .

شارع امام بيت هيلين

حوالي عشرة أعــــداد من جريدة النور السرّية مبعثرة على الرصيف .

شرطيان يقتادان الرجل الذي يوزعها وهما يضربانه بالعصي .

هيلين رأت المشهد من بعيد وكانت خارجة من بيتها . تتجه نحو القصر . في زاوية الشارع ، تشاهد رجــلا يوزع جريدة النور . يأتي بعض رجال الشرطة يطلق الرجل ساقيه للريح .

ردهة القصر

تجتازها هيلين بسرعة لتدخل الى مكتب جان . أثنــاء مرورها ، يخفي الحجّاب جريدة النور التي كانوا يقرأونها .

مكتب جان

جان جالس الى مكتبه تدخل هيلين وتذهب الى مكانها .

– صباح الخير يا جان .

– صباح الخير يا هيلين .

جان يكتب بوجه مغتم . تقلب هيلين أوراقاً مطبوعة على الطاولة . تحاول أن تقرأها ولكن عينيها تعودان للنظر نحو جان بقلق محموم . يتابــع جان الكتابة بدون أن يرفع رأسه . هيلين تحاول أن تقرأ من جديد . فيقول جان فجأة بصوت مبهم :

– هيلين !

فترفع رأسها ، ولكن جان غارق في أوراقه ويتابع :

– سأستقبل رئيس المنظمة عند الظهر . يلزمني تقرير هودريك . .

لم تتمكن هيلين من الاجابة . فأومأت برأسها قليلا . يحتسي جان قدح الوسكي وسط السكون . يضعه فوق الطاولة فيحدث ضجــة ، ترتعد هيلين

وتنهض فجأة :

يرفع جان نظره إليها. في هذه اللحظة يفتح احد الحجاب الباب ويدخل:

– أصحاب السيادة الوزيران داريو ومانيان .

يدخل داريو ومانيان ويجلسان أمام مكتب جان . تعود هيلين الى الجلوس شاردة . تنظر بإمعان إلى الساعة التي تشير إلى العاشرة . ثم يختفي عقربا الساعة ، شريط أسود يدور على نفسه ويغطي الإطار . أصوات جان ومانيـــان وداريو المبهمة تمتزج بأصداء تزداد قوة . ينفلت الشريط محدثاً صوت انفجار فتقع هيلين على طاولتها إلى الأمام ورأسها بين يديها . ينهض جان صائحاً :

هيلين !

يركض إليها . يشير إلى داريو ومانيان بالخروج .

– عودا في الساعة الثانية .

يأخذ هيلين بكتفيها ويرفعها ، بينما يذهب داريو ومانيـــان . وتتطلع هيلين في عيني جان .

وتسأله :

– لقد قرأت أليس كذلك ؟

لم يجب جان بشيء . يبدو انه يتألم .

وتصيح :

– مـــا أنت صانع بلوسيان ؟ إذا أمرت بتوقيفه فلن يعود ! تكلم ! ما أنت صانع به ؟ أجب ! أجب !

لم يجب جان بشيء . إنه منهوك القوى. تفهم هيلين فجأة وتبدأ بالصياح:

– طاغية ! طاغية ! قاتل ! اني اكرهك !

ثم تنهض وتغادر المكتب ركضاً ...

المحكمـــة

هيلين صامتة . ارتبك وجهها بالذكرى التي تقصها . ثم تتابع سرد القصة :

– ومضى عام . لم أر فيه جان ولم يسع هو لمقابلتي . لم يكن بإمكاني أن أتوصل لمعرفة مكان لوسيان . لقد بحثت في السماء والأرض ، ولكن جميع الأبواب أوصدت دوني . بحثت عاماً كاملاً بدون جدوى . وذات مساء ...

شهادة هيلين (عما مر قبل سنتين)
بيت هيلين

هيلين تعود إلى بيتها منهكة متعبة . تتوقف أمام بيتها سيارة جان الطويلة البيضاء . تنظر إليهـــا مشدوهة وتصعد الدرج سريعاً وتدخل إلى بيتهـــا . جلس جان في الصالون . ينظر إليها بوجه بارد وعميق الألم . فتسأله هيلين :

– لماذا أتيت ؟ انك ترهبني .

فيجيب جان بعد هنيهة من الصمت :

– لوسيان يعاني سكرات الموت .

لم تقل هيلين شيئاً . تستند إلى ظهر كنبة .

يتابع جان :

– سيارتي تحت . استقلها . إنه في مستشفى تيراغ .

يتردد لحظة ثم يسأل بخجل :

– هل أستطيع أن أرافقك ؟

– كلا .

تنهض هيلين ثانية وقد ظل وجهها المتقنع أشد قساوة ، تمر أمام جان بدون أية كلمة ، وتنزل الدرج وتستقل السيارة .

المستشفى

ممرضة تتقدم هيلين في ممشى فسيح . تتبعها هيلين بخطى متثاقلة ، كالسائر في نومه . تفتح الممرضة باب غرفة فيها لوسيان بمفرده . يتنفس بصعوبة مغمض العينين . تقترب هيلين من السرير وتمسك بيد لوسيان الذي يفتح عينيه ويقول بصوت ضعيف :

– أنت أليس جان هنا ؟

تومىء هيلين برأسها بالنفي .

يغمض لوسيان عينيه من جديد

المحكمة

هيلين تتحدث :

– لقد توفي في الساعة الخامسة صباحاً .

تمر فترة صمت ، ثم تضيف :

– هذا كل ما لديّ أن أقوله .

يتطلع الجمهور نحو هيلين بعطف يصحبه التأثر . تدير ظهرها وتهم بمغادرة القاعة .

يفسح لها الجمهور الطريق لكي تمر ولكنها تسمع صوت جان منادياً :

– هيلين !

تستدير هيلين ، فيقول جان :

– إبقي .

تتردد هيلين لحظة ، ثم تعود باتجاه المحكمة .

ينهض جان قائلا :

– سأمّ ...

يقاطعه فرانسوا بحركة .

يهمس في أذنه أحد الثوار وقد دخل من طرف القاعة .

ويسأل فرانسوا :

– أين ؟

فيقول الثائر :

– في دار البلدية .

– من ؟

– المندوبون النقابيون وجميع الفرق الثورية . وقد أمّت الوفود هذا المكان وتطلب إليك أن تقابلها .

فيقول فرانسوا :

– حسناً .

يتجه نحو الجمهور ويعلن :

– إن ممثلي الشعب ممن يتألفون مؤقتاً من ممثلي النقابات والثوار المسلحين

قد انتخبوني في الحال رئيساً للحكومة المؤقتة .

تعمّ القاعة صيحات الحماس . الجميع وقوفاً ، والجميع يصيحون . يرفع فرانسوا ذراعه فيعود السكون .

– سأتابع هذه المحاكمة حتى النهاية . وبصفتي رئيساً منتخباً للحكومة أقيم دعوى الحق العام على الطاغية . لكني ملزم بتأجيل الجلسة . ستجتمع المحكمة من جديد هذا المساء في الحادية عشرة .

ويصفقون من جديد . يصيح من في القاعة بضعة أشخاص يغادرون القاعة . يصعد فرانسوا المنصة ويصل إلى المخرج في الزاوية . بضعة ثوار يحيطون بجان ويخرجونه . يتطلع جان أثناء سيره إلى هيلين التي تغادر القاعة.

مكتب جان في القصر

يدخل فرانسوا بخطى مترددة إلى المكتب الكبير . يتطلع فيمن حوله ، وعلى وجهه نفس الملامح المتهيبة التي اكتنفت وجه جان عندما تسلم القصر .

يتجه فرانسوا نحو المكتب ويذهب للجلوس إليه في هذه اللحظة يرى الخادم يقدم إليه الكنبة باحترام كلي .

فيقول فرانسوا بضحكة قصيرة :

– ها أنت هنا ! حسناً ، اذهب إلى الباب وادخل الوفود . وليس كلها معاً .

فينحني الخادم ويذهب إلى الباب الذي يسمع من خلفه ضجيج صاخب . يخرج الخادم ثم يعود ، ووراءه قد خفت الضجيج في الردهة ، ويعلن :

– وفد مصاهر كلينو .

ينهض فرانسوا شاحب الوجه نشعر انه مضطرب من الانفعال . يدخل المندوبون ويقفون في نصف دائرة أمام المكتب الكبير .

وفي الخارج ، تحت نوافذ القصر ، يضحك الجمهور ويغني ويصيح .

وفي المكتب حيث جلس فرانسوا ، أخذ يتحدث إلى المندوبين :

– انني أكرر لكم ذلك . سياستنا هي عين ما تطلبون . سياسة تفرض نفسها . قبل كل شيء وضع حدّ للارهاب إطلاق سراح السجناء السياسيين . وإلغاء التدابير الاستثنائية في الأرياف . إعادة حرية الصحافة . ودعوة البلاد في أسرع وقت ممكن لانتخاب المجلس التأسيسي .

« أعرف انكم تنتظرون بياناً عن سياستنا بالنسبة للبترول والقطاعات غير المؤممة حتى الآن من صناعتنا . سأقدم بهذا الخصوص بلاغاً من الاذاعة هذا المساء عند منتصف الليل وكل ما أستطيع ان أقوله لكم الآن ، هو أنه في هذا الميدان ، كما في غيره ، لن يكون دم الثوار قد أريق عبثاً .

يجيب الثوار بالقبول .

وبينما فرانسوا يتكلم ، يأتي الخادم ويهمس شيئاً في أذنه . فيقول فرانسوا مدهوشاً :

– فلينتظر .

يقول الخادم كلمات أخرى . تزيد دهشة فرانسوا ويتصلب وجهه .

ينهض ويقول للخادم :

– هذا جيد .

ثم إلى المندوبين :

– فليبدأ العمل في أسرع وقت ممكن ، أيها الرفاق . ففي ذلك مصلحتنا جميعاً .

يحيي فرانسوا الجمهور بحركة من يده . ينسحب هؤلاء . من أحد الأبواب يدخل الخادم شولشر الذي يصحبه رجل في الخمسين جاف الملامح رقيـق ، يلفت الانتباه ، ذو وجه وقح بتأدب . ينحني شولشر أمام فرانسوا .

– أنا شولشر ، رئيس مصافي البترول .

فيقول فرانسوا :

– ألديك الشجاعة للسير في الشوارع . فكثير من الناس يودون تمزيقك.

فيقول شولشر مبتسماً :

– أعرف كيف أدافع عن نفسي .

ثم يشير إلى صاحبه :

– ها هو السيد كوت سفير بلادنا .

يتبادل الرجال الثلاثة تحيات باردة . يقترب السفير من فرانسوا خطوة .

– هل أنا أمام رئيس الحكومة الجديد ؟

– نعم .

فيقول كوت :

– لم أشأ انتظار الاشعار الرسمي لكي أكلمك . وإن حكومة بلادي شديدة الاهتمام في العيش في وفـاق مع حكومتكم وأود ان أنقل إليها في أسرع وقت إجابتكم على هذا السؤال : أصحيح أن إحـدى التهم الموجهة لجان آغيرا هي أنه لم يؤمم البترول ؟

– هذا صحيح .

– هل علينا ان نستدل من هـذا على إيضاح حول سياسة حكومتكم بشأن البترول ؟

يجيب فرانسوا بغضب :

– إن محاكمة آغيرا هي محض داخلية . أما بشأن السياسة التي ستنتهجها الحكومة، فستعرفونها كمواطني من البيان الذي سألقيه في منتصف هذه الليلة.

– هذا رائع . متى تعتقدون انه سيعاد الاتصال الهاتفي مع الخارج ؟

فيقول فرانسوا :

– آمل ان يتم ذلك بعد الظهر .

– في هذه الحال ، أتلقى الأوامر من حكومتي ومن الممكن أن أطلب إلى سيادتكم مقابلة « قبل » الخطاب .

يشدد السفير بسخرية على كلمة « سيادتكم » . وما ان يتم حديثه حتى ينحني بأدب أمام فرانسوا ، يفعل شولشر على غراره . يصحبهما فرانسوا حتى الباب . ينادي حارساً يقف في الردهة :

– أعدوا ثلاث سيارات وخمسة عشر رجلاً مسلحين لمواكبة سعادته حتى السفارة .

يبدي السفير وشولشر امتنانهما بحركة . لا يجيب فرانسوا وينظر اليهما وهما يذهبان بوجه قاس يشوبه قلق مبهم .

الى جوار قاعة المحكمة

في الممرات والقاعات المجاورة لقاعة المحكمة ، ينتظر الجمهور الذي كان يحضر الجلسة استئناف المحاكمة . كثيرون ينامون متمددين على الأرض أو ساندين ظهورهم للجدران . رجل واقف ينام متكئاً على بندقية .

ينزلق من وقت لآخر ، فيستيقظ وينهض ثم يعود إلى النوم . وبعضهم يتناول فطوره جالساً على الأرض . ومنهم من يناقش .

وعندما يفتح باب القاعة على مصراعيه ، تزاحم على المقاعد : النـــاس يوقظون بعضهم البعض يرتبون مؤونتهم على عجل ويزحفون على قاعة المحاكمة واطئين من لا يزال نائماً .

المحكمـــة

يعاد جان إلى مكانه في الوقت الذي تمتلىء فيه القاعـة بضجيج صاخب . يعود المحلفون إلى الجلوس في أمكنتهم وقد أعياهم التعب. كما تجعدت ملابسهم وتقلصت سحنهم وطالت لحاهم .

يأتي فرانسوا ويأخذ مكانه . قد حلق ذقنه ويبدو نشيطاً . تجلس هيلين على كرسي أعد لها في وسط الفسحة بمحاذاة الصف الأول .

تمتلىء القاعة بسرعة ويأخذ كل مكانه .

ينهض فرانسوا فيعم الصمت على الفور ويعلن :

– الكلام للدفاع .

ينهض جان ويقول بلهجة ساخرة :

– الدفاع هو أنا .

يسير خطوات ليأتي ويأخذ مكانه في الفسحة المخصصة للشهود . وهنـاك يظل واقفاً إلى نهاية شهادته على بعد خطوات من فرانسوا وهيلين . يخاطب الهيئة أولاً :

– لقد ربحتم وهذا أفضل لكم . وليس لدي حسابات أؤديها أمامكم ولا آسف على شيء .

ثم يواجه هيلين :

– إليك وحدك يا هيلين أريد أن أؤدي الحسابات. لقد أحببت لوسيان. وليس بإمكانك أن تقدري كم كنت أحبه .

فتقول هيلين :

– كنت تحبه ومع ذلك قضيت عليه .

– أجـــل ، قضيت عليه ، كما قضيت على آخرين . أتظنين ان هـــذا لا يرهبني ؟

يشير إلى الهيئة بيده :

– هؤلاء قاموا بثورتهم ، والآن سيقتلونني وأنا سعيد بذلك . فحياتي أثقـــل من أن احتملها . لكنني لا آسف على شيء يا هيلين . لا بنفا ، ولا لوسيان ، ولا القرى المحروقة . ولو سمحت لي الفرصة لقمت بذلك منجديد.

يشعر الجمهور بالتحدي فيستقبله بالصفير والاستهجان . وينتصب جـان وينظر إلى القاعة بقساوة :

– الجميع . حتى لوسيان !

تزداد صيحات الاستهجان ، بالرغم من فرانسوا الذي يطلب العودة إلى الصمت بيده وصوته . يتابع جان ويرفع صوته للسيطرة على الجلبـــة التي تزداد شيئاً فشيئاً .

– أيها المغفلون المساكين ! تؤمنون بأن السيـــاسة ستتغير : ولن يتغير سوى الأشخاص .

يشير باصبعه إلى فرانسوا الذي جلس :

– ستنتهج سياستي ! ستنتهجها لأنه ليس هنـــاك من سياستين اثنتين . أتتصور بأني سأبرر سياستي ؟ بل أنت الذي ستبررها بعـــد ثلاثة أشهر أو ستة أشهر .

ثم يعود إلى مخاطبة هيلين من جديد . والقاعة التي أوشكت ان تكون ساكنة أخذت تهدأ بمقدار ما كان جان يمن في حديثه ، ثم يصبح الصمت كليـــاً .

– إصغي يا هيلين .. انها قصة العنف . كان العنـــف في كل مكان في البداية . في نفسي وفي خارج نفسي . كان جدي قرصاناً عجوزاً . قتل أبي رجلا بالمذراة . في القرية . كنت أشهد الفلاحين يصرعون أبناءهم ونساءهم وهم سكارى . وأنا فلاح عنيف مثلهم . ولكن في الثانية عشرة من عمري سحقت ذراعي تحت الأقدام في معركة بين الصبية ، وأضحى العنف يرهبني. وأتيت إلى المدينة حينما تمكنت ، ولاقيت فيها العنف .

شهادة جان (عما مر قبل ثلاثة عشر عاماً)

أحد الشوارع

شارع بائس في حي فقير . أمام إحدى الحوانيت يقف بضع نساء على صف واحد . بأوجه ساءت تغذيتها ، أوجه بغيضة ملجاج . بضعة رجــال يجلسون ومن بينهم جان . يرتدي بزة قديمة من عمال المناجم وقبعــة رخوة متهدلة . يسمع صوت جان يصيح بقوة : « عنف ! بؤس ! » رذاذ من المطر ينهمر . تفتح بضع مظلات يرفع جان قبعـــة سترته . وراءه تقف امرأة تحمل طفلا . تنحني فوق ولدهـــا لتحميه قدر الامكان من المطر . يلامس جان كتفها ويشير اليها باعطائه الطفل . يفتح جان سترته : تناول الامرأة الطفل لجان فيضمه إليه بمعزل عن المطر .

في هذه اللحظة ، يظهر صاحب الحانوت في الباب معلقاً لوحــة : « لا شيء بعد الآن للبيع » . يسكت الناس بعض الوقت إستياء ثم تأخذ امرأة بالصياح :

– يا للقذارة ! انهم يسخرون منا ! إمضوا إلى قبوه لتروا إذا لم يكن لديه شيء لبيعه !

يبدأ النسوة الواقفات صفاً بالصياح والاحتجاج « قـــذر ! متاجر ! » يتفرق الصف ويتجمهر الناس أمام واجهة المحل. صياح وتهديد. حجر يكسر زجاج الباب الذي وراءه نرى صاحب الحانوت قد ذعر .

يأتي رجال الشرطة راكضين وهم يصفرون وبيدهم عصيهم . يحاولون تفريق الناس . يرفض النـــاس ، فتظهر قساوة الشرطة في الحال . لكمات ورفسات ، تقع امرأة على الأرض. ينقض شرطي على جان وهراوته بالهواء. يتجنبها جان ويفر . يجوب زاوية الشارع ويتوقف مزعوجاً من الولد الذي لا يزال يحمله فوق ذراعه السليمة . يعود نحو الشارع الذي يقع فيه المحل ، ويرى أم الطفل تتخبط صائحة بين اثنين من رجال الشرطة يقتادانها بقساوة. يقترب جان من الشرطيين ويشير إلى الولد .

– الصبي هو ابنها .

أحـــد الشرطيين يتطلع إلى الولد بدهشة ، بدون ان يترك الأم التي لا تزال تتخبط .

ويسأل الشرطي :

– انه لك ؟

– انه .. انه لي صغيري .

يأخذ الشرطي الصبي تحت ذراعه الأيسر وكأنه حقيبة ويستمر بسحب الامرأة مع زميله .

يتطلع جان إليهم يسيرون وهو جامد في مكانه ، ويسمع صوتـــه وسط الشارع :

– عنف . بؤس . مجاعة . بؤس في كل مكان . في كل الشوارع ، أمام كل الحوانيت ، كان الفقراء يزجرون . وكان عدم الرضى يزداد . عند ذلك لجأ الأغنياء لوسائلهم الكبرى .

شارع آخر

على الحائط علقت يافطة عليها رسم كاريكاتوري ليهودي ذي أنف معقوف، ويدين كأنها المخالب كما كتب عليها : « إنه اليهودي الذي سبّب شقاءك . »

ويسمع صوت جـــان يقول : « لم أعد أستطيع أن أتحمله ! لم أعد أستطيع ! »

يسير جان في شارع فقير . يلطم شيخاً عجوزاً يرتدي أسمالاً وكان يسير منكسراً على عصاه . وأمام أحد المخازن ، تنتظر فتاة صغيرة ، حـــاملة بيدها طفلاً وسخاً . في زاوية الشارع يلعب أحد الأولاد بالكرة يحمل آلة تقوم مقام الرجل تمسك بساقه حتى الركبة .

صوت جان يردد : « عنف ! بؤس ! »

يتطلع جان هنيهة إلى الطفل ، ثم يضيع نظره . يبدأ بالركض يائساً .

إنه حلم ! يركض ، يصل إلى شارع في الأحياء الجميلة . تمر سيارة رائعة، يسبقها راكبون على دراجات نارية يعتمرون خوذات . إنها سيارة الوصي . يخرج جان مسدساً من جيبه ويطلق النار على الوصي فيخر صريعاً . رجـال الشرطة ينقضون على جان الذي يلقي قنبلة ، في حين يسمع صوته يقول بغيظ « بؤس ! عنف ! وضد العنف لم أكن أرى سوى سلاح واحد هو العنف ! » ثم يتبدد الحلم : ولا يزال جـــان في الشارع يتطلع إلى الولد الكسيح الذي يلعب بالكرة ، ثم يتابع سيره ويدخل أحد البيوت . ويقول صوته : « نحو هذه الحقبة انتميت إلى منظمة سرية . »

بعد ذلك بأيام

في الشارع ذاته ، وأمام اليـــافطة ذاتها ، يقف جان وثلاثة من العمال الأقوياء يتفرجون عليها . يستديرون فجأة ويسمعون صوتاً يقول : « الموت لليهود » .

على مقربة منهم محل لبيع العقاقير «ايلي كوهين» رجال ونساء يتظاهرون بصياحهم أمام المحل « مستغل يهودي قذر ! مستغل ! » بين صفوف الجمهور محرضون يدخل ثلاثة منهم إلى الحانوت ويخرجون تاجر العقاقير بوحشية وقد امتقع لونه من الخوف . يهم الجمهور بتمزيقه .

يقترب جان ورفاقه الثلاثة . فجأة يقف رجل بين الجمهور وبين الرجـل اليهودي . إنه لوسيان . إنه أحسن هنداماً من جميع من يشتركون في المشهد. يصيح ويداه في جيوبه :

– لا تمسوا هذا الرجل .

يقول أحد الأشخاص ممن دخلوا الحانوت بهزء :

– قد تمنعنا أنت من ذلك ؟

فيقول لوسيان :

– أمنعكم من ذلك . ولكن ليس بالقوة بل ستصغون إليّ . أيها الرفاق لا تنخدعوا ، هـــذا الرجل مستغل مثلكم ، وهو بائس مثلكم ، يحاول تحويل غضبكم .

اثنان من المحرضين وكانا يمسكان باليهودي يتركانه ويذهبان الى لوسيان ، فيقول أحدهما :

– هل انتهيت ؟

– كلا لم أنتهِ اصغوا أيها الرفاق ...

يضرب الرجل لوسيان بقبضة يده على بطنـــه فيطويه على نفسه لم يشر لوسيان بأنه يود الدفاع عن نفسه . يعود فيقف ويتابع :

– أيها الرفاق ، ليس صحيحاً أن هنالك يهوداً وآريين : فهناك فقراء ومستغلون !

يضربه الرجل مرة أخرى . وفي وجهه هذه المرة . فيقول لوسيان :

– لن أدافع عن نفسي !

يتشاور جان ورفاقه الثلاثة ويتدخلون في المعركة . وتمر لحظـــة فيقع المحرضون الثلاثة أرضاً . يسعى بعض الرجال ممن يمسكون باليهودي أن يساعدوا المحرضين . معركة يقطعها طلق ناري . يسقط اليهودي . الدهشة تعم المتخاصمين الذين يتوقفون ثم يتفرقون بسرعة . يركع جان ولوسيان قرب العجوز ويرفعانه . فيقول جان :

– لديه حسابه .

يقول لوسيان :

– ما كان عليكم ان تضربوا هذا الرجل .

– لو لم نمر لكنت قضيت ربع ساعة من النحس ؛

لقد تكلم بحنان ولكن لوسيان راق له . ويقول لوسيان :

– بالنسبة لي لم يكن ذلك ليؤثر . ولكن أنتم .

– ماذا ؟

– فلأنكم ضربتم أطلقوا النار . فالعنف ينادي العنف .

يتطلع جان إلى لوسيان بوجه غير آبه . ويقول :

– أنحمله إلى بيته ؟

كلاهما يحمل الميت إلى دكانه .

يسمع صوت جان « منذ ذلك اليوم أصبح صديقاً لي » .

أحد الاقنية

جان ولوسيان يتنزهان على الطريـــق . يسمع صوت جان : « صديقي وأخي . ولكن ليس نظيري . »

يتوقف لوسيان . يتابع بغضب حديثاً كان قد بدأه منذ زمن :

– ... أن أغرس هذا في رؤوسهم جميعاً . فالشرط الأول ليكون المرء إنسانـــاً هو أن يرفض أي اشتراك مباشر أو غير مباشر بعمل من أعمال العنف .

يصغي جان إليه ، موزعاً بين إعجابه الودي بطهـارة لوسيان وهزئه من قلة تجربته . ويسأله :

– وأية وسيلة تلجأ إليها ؟
– كل الوسائل ! الكتب ! الصحف ! المسرح .
– أنت مع ذلك بورجوازي يا لوسيان .

فأبوك لم يضرب قط أمك . ولم تضربه الشرطة أبداً ، كما وانه لم يطرد من المصنع بدون إيضاح أو تحذير ، لا لشيء سوى ان المصنع يخفض عـــدد عماله . لم تواجه العنف . ولا يمكن أن تحسه مثلنا .

فيقول لوسيان :

– إذا عرفت العنف ، فهذا سبب أشد لاجتنابه .
– أجل . ولكنه في أعماق نفسي .

يتحدث جان لهيلين :

– لقد لمست عنفي على الفور وكان يرعبك . ولم تجب هيلين واحمر جان.

– قولي ! اعترفي بأن العنف كان يرهبــك . تتردد هيلين ، ثم تقول بصوت خافت :

– لا أعرف .

– كنت أظن انني أرهبك .

يتبادلان النظرات . لم يعد سواهما في القاعة . لم يهتما بفرانسوا ولا بالهيئة ولا بالناس الذين كانوا يصغون إليهم بصمت كلي وتقول هيلين .

– لم تكن ترهبني . تلك كانت الكبرياء . كبرياء فتــاة صغيرة . كنت أحب قوتك ولكني لا أريد التنازل أمامها .

– أحببتك منذ اليوم الأول . كنت أحبك أكثر من نفسي وقد أعطيتك للوسيان لأني كنت أحبه كأخ . لو كنت تعرفين يا هيلين ما كان في رأسي ليلة زفافكما .

شهادة جان (عمّا مرّ قبل عشر سنوات)
مزرعة سوزان

جان وسوزان واقفان في القاعة الكبرى في أسفــل الدرج ، سوزان تنحني على يد جان الدامية ، وتفرغ من تضميدها . يتطلع جــان نحو الدرج الذي صعدت منه هيلين ولوسيان . وفجأة تضطرب رؤياه . انه حلم : يدفع سوزان ، يمسك بسكين عن الطــاولة ، يتسلق الدرج ، يفتح باب غرفة لوسيان ! ينظر إلى لوسيان وهو يقبل هيلين المنبطحة على السرير . ترتفــع

ذراع جان ، تمسك يـــده المضمدة بالسكين ، ويضرب لوسيان . ثم يتبدد الحلم : ولا يزال جان في القاعة الكبرى . تفرغ سوزان من تضميد يده وتنظر إليه بشوق . جان الذي كان لا يزال يتطلع نحو الدرج ، يلتفت نحو سوزان ويشعر بوجودها آنئذ فقط . يسمع صوته يقول :

« كانت امرأة هناك ... »

ينحني جان فوق سوزان ويقبلها بوحشية .

المحكمة

جان وهيلين يتواجهان . تخفض هيلين رأسها وتلاعب طرف فستانها ، يقف جان ويبدأ بالمسير ذهاباً وإياباً . لا يعرف لمن يتكلم . للهيئة ؟ لهيلين؟ لنفسه ؟ للجمهور ؟ لم يتطلع إلى أحد .

في هذه الحقبة فهمت ما كان يجب عمله . كان رجال البترول جد أقوياء ، وكان وراءهم بلد كبير أما بلادنا فصغيرة . لا يجب أن نقابلهم وجهاً لوجه . الانتظار . كان الموقف ثورياً . كان من الواجب إعداد الثورة ، وتنفيذهـا ومن ثم الابقاء عليها ، حتى اليوم الذي نصفي لهم الحساب فيه . في البداية كانت يداي نظيفتين . نظيفتين كيدي لوسيان لم أكن سعيداً ، غير اني كنت أشعر بقوتي ونظافة يدي . ثم أتى ذلك اليوم الذي طرقت بابي فيه ..

شهادة جان (عمّا مر قبل ثماني سنوات)

بيت سوزان

جان يعمل في غرفة الغسيل . جان يعير الانتباه فيسمع نقاشاً حـــاداً

بين سوزان وامرأة أخرى . ينهض فيسمع سوزان تقول :

– أكرر لك انه ليس وحده .

يفتح جان باب غرفة الغسيل ويرى سوزان وهيلين وجهاً لوجه . سوزان بسحنة معتمة هيلين مضطربة .

يقول جان بنوع من اللوم ولكن بلهجة ودّية :

– ولكن ماذا هناك يا سوزان ؟ أنت تعلمين أن لا أحد في الغرفة وأنا أنتظر فيها هيلين .

– من أجل هيلين ، أجل بالطبع .

يتحرك جان مذعوراً ويكتم حركته .

وقال بهدوء : من أجل هيلين ، ومن أجل جميع أعضاء اللجنة . تعالي يا هيلين .

يفتح باب غرفة الغسيل ليدخلها . تمر هيلين . تريد سوزان اللحاق بها . يوقفها جان ويسأل هيلين :

– أتريدين أن تحدثيني عن أعمال ؟

– نعم .

يعتذر جان من سوزان بإشارة .

– آسف يا سوزان عليك أن تتركينا .

سوزان غاضبة تقفل الباب بنفسها عليها بدون ان تقول شيئاً . يقترب جان من هيلين ، وهي في حالة من الاضطراب القوي .

– ماذا هناك ؟

لم تجب بشيء . يمسكها بكتفها ويهزها .

– قولي ماذا هناك ؟

فتسأل هيلين :

– أين بنغا ؟

جان مشدوهاً :

– بنغا ؟

أين أستطيع أن أجده ؟

يتطلع إليها جـــان لحظة بدهشة . ثم يذهب فجأة إلى الباب ويفتحه . كانت سوزان وراءه : كان يبدو انها تصغي أو تتطلع من ثقب البـــاب تتراجع وهي تتطلع إلى جان بكراهية . يقفل جان الباب في وجهها ويعود إلى هيلين .

ويقول :

– بنغا ؟ هل هو لوسيان الذي أرسلك ؟

– كلا .

ينظر جان إلى حقيبة هيلين ينقر عليها بعصبية .

ويقول بلهجة حالمة :

– ليس لوسيان . .

ثم ، يضيف فجأة :

– اعطني حقيبتك .

فتصيح هيلين :

– كلا .

يستولي جان على حقيبة هيلين .

يخرج منها مسدساً ملفوفاً بخرقة .

ويقول :

– آه ! إذاً لوسيان لا يريد ؟

– جان ، ليس ذلك لجبنه .

فيقول جان بمرارة :

– أعرف ذلك ، فهو لا يريد أن يلطخ يديه .

إذاً انت ... انت ، تريدين .

فتقول هيلين :

– نعم .

وتخفض رأسها وتقول بصوت غامض :

– ما نحن إلا واحداً . وهو ، أنا .

يتشنج فم جان قليلاً . يفتح الخرقة وينظر إلى المسدس ويبتسم ابتسامة جافـــة .

– ولكن هذه لعبة ! ماذا تريدين أن تفعلي بهذا ؟

– قل لي أين بنغا . هذا كل ما أسألك .

يذهب جـــان إلى الطاولة يلقي فوقها المسدس ، ثم يستدير نحو هيلين

ويقول ببسمة ملؤها المرارة :

– أتظنين أن قتل رجل أمر يسير ؟

لم تجب هيلين بشيء . ويقول جان .

– وبعده ؟ أتظنين أن المرء يبقى كما هو ؟

ينظر إليهــا بألم بدون أن يتكلم ، ويسمع صوته المبحوح يتمتم بنوع من اليأس :

– لماذا أنا؟ لماذا دوماً أنا ؟ أليس لدي الحق بأن أبقي على يدي نظيفتين. لا أريد . لا أريد أن أقتل . فهو الذي كلف بذلك . .

ثم ينتفض جـــان . ويعود فيقترب من هيلين ويقول لها بهدوء وبنوع من الحنو :

– انها من عمل الرجال يا هيلين . ثم إن الأمر يصبح خطيراً إذا أخطأت هدفك .

– سوف لن أخطئه .

– قد تخونك أعصابك . ليس لدي الحق بأن أسمح لك بذلك .

يبتسم بحنو لهيلين ومن جديد ، وبدون ان يحرك شفتيـــه ، يسمع صوته المحموم :

– لا أريد أن أقتل . أنا أكره العنف .

– لقد تلطخت يداي . أكثر أو أقل .

– من أجلي ستقتله يا جان . من أجلي .

ينظر إليها باشتياق . ويقترب منها . تشعر بأنهما سيتعانقان ، ولكن في

النهاية ، يستدير جان بجهد ويقول :

– من أجل لوسيان .

الحكمـــة

جان أمام هيلين .

– كان ذلك أقسى مما كنت أظن .

كان جان في اجتماع سري للبترول . كان عائداً عن طريق مقفر وكنت أنتظره ...

شهادة جان (عمّا مرّ قبل ثماني سنوات)

طريق ريفي

الطريق مقفرة . جـان واقف ، يلقي ظهره إلى شجرة . يسمع من بعيد صفيراً مرحاً يقترب . يرتعد جان ويتربص للرجل الذي يقترب . انه بنغا . يسمع صوت جان يقول : « كان من الأفضل أن أقتله أثناء مروره . ولكني أردت ان اكلمه . لم أكن أريد أن أقتله قبل أن أكلمه . »

يتقدم بنغا بدون أن يحث خطاه وهو يصفر دائماً . يخرج جان من وراء الشجرة .

يتوقف بنغا .

– من هنا ؟

يسلط قنديله على جان .

– انت يا جان لقد افزعتني . ظننت انهم رجال الشرطة .

يتابع طريقه . يسير جان إلى جانبه .

فيقول بنغا :

– هل تعود إلى المدينة .

وبما أن جان لا يجيب يسأله :

– ما بك ؟

يصمم جان على الكلام :

– بنغا إنك خائن . سلمت كارلين .

يتوقف بنغا على عجل وينظر إلى جان مشدوهاً . توقف جان أيضاً . يرى بنغا المسدس في يده فتتحول دهشته إلى عزاء . ويقول : « أوف » فينظر إليه جان مبغوتاً .

فيقول بنغا .

– إذاً هذا ! منذ ثلاثة أشهر وأنا أشعر بأني مشبوه . ثلاثة أشهر ولم أعد أفهم فيها شيئاً . سينقضي الأمر اليوم . أنا لست خائناً يا جان . أقسم لك ذلك على رأس زوجتي وأولادي . فيقول جان :

– اثبت ذلك .

– كيف تريدني أن أثبت ذلك ؟

يتطلع إلى جان ويفهم فجأة أنه يهم بقتله .

– ما حييت إلا في سبيل اللجنة . اليوم تحكمون عليّ بدون أن تسمعوني.

حسناً . اصنع ما شئت .

لم يستطع جان أن يجيب . ينم وجهه عن عياء عذب يقارب التفجع . فيقول بنغا :

ستكون سعيداً أيها القذر ! فلن أزعجك بعد الآن .

يرفع جان مسدسه .

— انت الذي دبرت كل هذا ، أليس كذلك ؟

وصممت على قتلي بنفسك .

يطلق جـان رصاصتين . يتقوس ظهر بنغا بدون أن يقع . ويقول بنوع من السخرية :

— يا مجرم ! لا أودُّ أن أكون في مكانك حين تعلم اني كنت بريئاً .

يطلق جان النار مرة أخرى فيسقط بنغا . يتطلع جان الى الجسم الممدد عند قدميه .

المحكمة

جان واقف أمام هيلين ينعم النظر الى قدميها ويقول بصوت أصم :

— بعد ذلك بشهر ، علمنا أن بنغا كان بريئاً .

شهادة جان (عما مر قبل سبع سنوات)

بيت لوسيان وهيلين

لوسيان جالس على كرسي بوجـــه مطبق . جان يقف قبالته ساكتاً

حزيناً . يضع يده على كتف لوسيان الذي يفلت منه : يتطلع إليه جان بوجه لائم متألم :

– لوسيان ! هل أرهبك ؟

– يداك ملطختان بالدم .

فيقول جان :

– أجل . يداي ملطختان بالدم . غير أني جنبتك تلطيخ يديك أنت . أخذت كل شيء على عـــاتقي . أو تظن بأنه لم يكن بودي أن تظل يداي نقيتين ، أنا أيضاً .

– لم أطلب إليك شيئاً .

يتطلع جان إلى لوسيان بوجه ملوه الإعياء بدون أن يجيب .

المحكمـــة

جان يتحدث إلى هيلين :

– ابتداء من هذه اللحظة لم أعد كما أنا . في البداية ، قررت ان أكافح بالعنف . ولكن ظننت اني لن ألجأ إليه إلا ضد أعدائنا . ومن ثم أدركت اني في دوامة وانه كان عليّ ، في انقاذ القضية ، أن أضحي حتى بالأبرياء .

« لم يعد بوسعي ان اكتسب حبك . لقد فقدت صداقة لوسيان . بدأت سوزان تكرهني . أصبحت وحيـــداً أشعر بنفسي بغيضاً ، فلو استطعت مساعدتي ...

فتقول هيلين مرتبكة :

– لم أكن أعرف يا جان ، لم أكن أعرف ذلك .

– هل قال لك لوسيان بأن سوزان كتبت له ؟

– سوزان ؟ كلا .

– قبل أيام من اندلاع الثورة ، وجدت مسودة في أحد الأدراج . كانت تتهمنا بأننا نخونها . ولم يحدثني عن ذلك قط .

فتقول هيلين :

– كما انه لم يحدثني أنا عن ذلك . إلا أنه لم يصـــدق أقسم لك بأنه لم يصدق . أقسم لك بأنه لم يصدق .

فيقول جان بحزن :

– قد يجوز . ولكنه لم يحدثني عن ذلك .

ثم يتجه إلى سوزان :

– إذا أردت أن تعرفي ، فمن أجل هذا هجرتك ولم يعـــد بنيتي أن أراك .

تحاول سوزان وقد امتقع لونها وزمت شفتيها ان تقول شيئـــاً . يتابع جان من غير غضب :

– لقد أحببتني يا سوزان . ولكنك لم تكوني صديقة . كنت تقطعـين لحم طعامي ، أجل . كنت تعنين بي كممرضة . ولكن عندما كنت بقربك ، أحسست دائماً بأني وحيد . ما كنت أكرهك . وقد حصل ، ولا ريب ، مني بعض الخطأ .

يسكت هنيهة ، ثم يخاطب هيلين من جديد :

– ومن ثم اندلعت الثورة قبل أوانها . أجـل قبل أوانها . قبـل بوقت طويل . غير أنها ما ان بدأت حتى وجب تنظيمها أحسن تنظيم . وقد فزنا وطردنا الوصي على العرش .

شهادة جان (عما مر قبل سبع سنوات)

مكتب جان في القصر

لم يكن قد مضى سوى ساعات على تسلم جان ورفاقه للقصر ، يتناقش جان ومانيان وداريو وفرانسوا واقفين وسط الحجرة من الزاوية كان الخادم يراقبهم . تحت النوافذ كان الجمهور المتحمس يهتف : « عاشت الثورة ! عاش آغيرا ! آغيرا ! آغيرا ! »

يبدو التأثر على مانيان وداريو وفرانسوا . أما جان فوجهه معتم . ينقر داريو على كتفه وبإشارة من رأسه يدل على النافذة ويقول :

– هيّا .

فيقول جان :

– في الحال .

يتطلع إليه كل من داريو ومانيان بدهشة . ويقول مانيان :

– جان . ألست سعيداً ؟

يهز جان رأسه .

– إنه سابق لأوانه . سابق جداً لأوانه . إن أصعب الأشياء لم يتم تنفيذها بعد . الآن علينا انقاذ الثورة . يتابع الجمهور الصياح . فيقول داريو :

– عليك أن تحدثهم .

يتردد جان لحظة ، يدخل أحد الحجّاب ، يقترب منه وهو يهم بالظهور من النافذة ويهمس في أذنه . فيقول جان :

– كنت أشك بذلك . وها أنا ذاهب .

يلحق بالحاجب إلى غرفة صغيرة لاصقة بالمكتب حيث ينتظر كوت ، السفير . ينحني السفير أمام جان بوقاحة متأدبة :

– أنت رئيس الحكومة الجديد ؟

– نعم . وأنت سفير ...

– نعم . هل بإمكاني الجلوس ؟

فيقول جان مشيراً إلى كرسي :

– اعذرني .

يجلس السفير ويتطلع حوله :

– هل كانت شقة الوصي الخاصة ؟

يقوم جان بحركة من ضاق ذرعاً :

– ابدأ بالوقائع .

يسعل السفير قليلاً ليجلي صوته :

– كلفتني حكومة بلادي بأن أقول لكم بأنه ليس في نيتها التدخل في شؤونكم الداخلية . وبالنتيجة يا صاحب السيادة فهي تعترف بسلطتكم .

– رائع .

ويتابع السفير : وليس هناك سوى نقطة لن نتهاون بها لأنها تتعلق

بمصالح رعـــايانا : عليكم أن تحافظوا على الوضع القائم بشأن الامتيازات البترولية .

– سأخبرك عما سنقرره في الوقت الذي أراه مناسباً .

– إن كل مساس لأملاك مواطنينا يعتبر من جانب حكومتي حالة حرب. والحمـــاية طلبنا عند الاقتضاء ، وضعت حكومتنا خمس وثلاثين كتيبة على طول حدودنا .

ينهض جان ويتطلع إلى السفير بوجه بارد :

– أنا مسرور باعتراف حكومتكم بالنظام الجديد الذي اختارته بلادنا ، وأرجوك أن تؤكد لها بأننا نود العيش أصدقاء مع جميع جيراننا .

ينحني أمام السفير الذي نهض ويعود إلى مكتبه . الجمهور لا يزال يصيح تحت النوافذ . يندفع داريو نحو جان :

– جان أرجوك اظهر على الشرفة .

يعبر جان المكتب ويذهب إلى الشرفة . يصيح الجمهور ويهتف له . يحييه جان بيده ثم يعود إلى المكتب متعباً مضطرباً . فيقول مانيان لائماً :

– جان كانوا ينتظرون أن تتكلم . لماذا لم تقدم على ذلك .

– ليس لدي شيء أقوله لهم .

المحكمة

يتابع جان كلامه :

– لم يكن لدي شيء أقوله لهم . وأنت يا فرانسوا عندما أتيت على رأس

وفد البترول ، لم يكن لدي شيء أقوله لك . لم يكن الأجنبي ينتظر سوى حجة لسحقنا . كان يجب ان نصمد . كان علينا أن لا نمس البترول في سبيل انقاذ الثورة .

يتطلع فرانسوا نحو جان باهتمام بارد ويسأله :

– الصمود كم من الوقت ؟ بما كنت تتأمل ؟

– الصمود عدة سنوات . من الآن وحتى سنتين ، أو ثلاث على الأكثر ، سينشب نزاع بين قوتين كبيرتين أنت تعرفها جيداً . هـذا أمر لا يرد له . عندها تسحب القوات التي تهدد حدودنا وتصبح أيدينا طليقة .

– وإذا غزونا منذ بدأ الحرب لتأميم البترول ؟

– لن يعدوا لنا سوى قسم ضئيل من إمكانياتهم : باستطاعتنا الوقوف في وجهها .

فيقول فرانسوا :

– بانتظار ذلك كان عليك أن تعطينا نظاماً ديمقراطياً ولم تفعل ذلك .

يهز جان كتفيه بإعياء :

– إن أول قانون كان سيقرر المجلس التأسيسي هو تأميم البترول . وهذا ما يؤدي إلى الغزو الأجنبي ، إذ يعين الوصي إلى الحكم وتتم تصفية الثورة .

– لقد باتوا يكرهونني . جميعهم : عمالاً وفلاحين ، وكل الرفـاق حتى لوسيان . كان يجب الصمود خمس سنوات وست. الصمود مع كل هذا الكره.

يشير بحركة نحو الجمهور :

– كل هذه الكراهية ! انظري . انظري إليها في عينيها . ها قد مرت

خمس سنوات وهم يقتونني . كنت أعرف ذلك . أخـــذت كل شيء على عاتقي . كان يجب أن أفعل ذلك . كان يجب الصمود . وبدأت أشرب !

شهادة جان (عما مر قبل ثلاث سنوات)
مكتب جان في القصر

يحتسي جان قدحاً من الويسكي ويضعه على الطاولة . أمامه لوسيان وداريو يعودان من تحقيقهما في الأرياف . تجلس هيلين إلى طاولة العمل . ويقول لوسيان لداريو :

– اذهب . فأنا لن يطردني كخادم .

يخرج داريو . يظل جان ولوسيان وجهاً لوجه .

فيقول لوسيان :

– أتوسل إليك . كيف فرضت بين يوم وآخر هـــذا التبديل الذي لم يسمع به فلاحونا .
– يلزمهم سنوات من الدعاية والتربية لكي يتقبلوا ذلك .
– إذاً إنها المجاعة في غضون ستة أشهر .
– انتزع ملكية البترول من الأجانب، يصبح لديك نقد تستبدله بالقمح .
– لا أستطيع ذلك !

يتطلع جان امامه . يرى دبابات الأعداء تزرع الريف . يناجيـه صوت لوسيان :

– أتوسل إليك يا جان . لديك متسع من الوقت . غيّر طريقك .

لا يزل جان ينظر إلى الدبابات . يقول بصوت متعب :

– لا أستطيـع ! لا أستطيع ..

تختفي الدبابات . جان يتطلع إلى وجه لوسيان الذي استشاط غضباً .

ويقول لوسيان :

– في هذه الحال ، لا تعتمد عليّ لمساندتك .

يخرج من المكتب على عجل . يضرب جان على الطاولة بكأسه الفارغة يملأه الخادم . ينهض جان ، يسير خطوات ويجلس الى مكتبه وهو ينظر الى هيلين وكأنه ينتظر منها العون . يسمع صوته الأصم يقول :

– العنف ! العنف دائماً ! انقاذهم بالقوة . تصنيع الأرياف بالقوة . ماذا فعلت يا إلهي ! ليحكم عليّ بالعنف ؟ ماذا بإمكاني ان أصنع ؟

المحكمة

جان ينحني فوق هيلين مثبتاً نظره فيها !

– ماذا كان بإمكاني ان أصنع يا هيلين ؟ فلو ساعدتني ! لو ساعدتني ! هل فهمت بأني كنت أدعوك لتساعديني ؟ ألم تقرأي في عيني ؟

شهادة جان (عما مر قبل ثلاث سنوات)

مكتب جان

جان يجلس الى مكتبه والكأس في يده ، ينعم النظر الى هيلين بنوع من التمهل الملتاع . ويسمع صوته :

– لأنه كان لدي العنف في الرغبة. كان بودي أن آخذك بين ذراعي و . .

يقترب الخادم من جان ويهمس في أذنه ، ويطلعه على الساعة . ويقول صوت جان :

– كانت لدي نسوة أخريات . . .

يلحق جان بالخادم الى غرفة صغيرة ملاصقة للمكتب ، حيث تنتظره

فتاة جميلة مثيرة وتقول :

– صاحب السيادة ، انه شرف كبير أن تقترب إليّ ... لم تكن لدي الشجاعة لأصدق ، يبدو انني أحلم .

يتطلع إليها جان ببسمة ساخرة أليمة . يقترب منها بينما هي تتابع كلامها ويسكتها إذ يغرس بسمة على شفتيها . ويقول صوت جان :

« النساء ! الويسكي ! ومن ثم هذا الكابوس ! »

الدبابات تجوب الحقول .

المحكمة

جان أمام هيلين :

– وتعرفين التتمة .

دمر الفلاحون الدبابات وأحرقوا المحاصيل . كنت أعلم انهم سيقدمون على ذلك . وكان من اللازم احراق القرى واعتقال آلاف الأشخاص للقضاء على العصيان . الدوامة مستمرة . كان من الواجب الصمود ستة أعوام. ومن ثم طبع لوسيان منشوره ..

شهادة جان (عما مر قبل ثلاث سنوات)

مكتب جان

جان يجلس الى مكتبه . أمامه وزير العدل ، يحمل في يده عدداً من جريدة النور السرية وهو يصيح :

– هل قرأت ؟ يجب أن تشنقه !

يضرب جان على الطاولة ويصعق الوزير بنظرته . يذهب الوزير إلى النافذة

ويشير الى جان كي يلحق به . كلاهما يتطلع من النافذة في زاويـة الشارع ، كان أحد الصبية يوزع البيانات على المارة . ويقول الوزير :

– في جميع أنحاء المدينة . لم يعد عمال البترول ينتظرون سوى إشارة ليتحركوا . يجب إعادة النظام وكذلك تخويفهم . لا يزال جان يتطلع الى النافذة . ينقر بإصبعه على المربـع ثم يخلص الى القول :

– أوقفه .

جلبة كبرى معادية .

المحكمة

النظارة تصفر وتصيح ، يتطلع جان الى الجمهور الساخط بدون أن يراه ثم يعود الى هيلين :

– طيلة سنة ، لم أغمض عيني .

يظل مستعراً ، عيناه شاردتان نحو هيلين . ثم تضيع رؤياه . ويتذكر .

شهادة جان (عما مر قبل سنتين)
غرفة جان في القصر

جان مستلق ، عيناه مفتوحتان ، يتقلب فوق سريره . يقول صوتـه : « العنف ! العنف ! » .

ينهض جان ولوسيان اليهودي الذي اغتيل في الشارع .
يسقط بنغا على الطريق وهو يتطلع الى جان بكراهية « العنف ! »
قرية تحترق . الرشاشات تقرقع .
الجنود يضربون الفلاحين بالسياط .
الدبابات تتقدم في الريف . صوت جان يكرر : « العنف ! »
جان في سريره ، يجلس فجأة .
ينادي : « كارلو ! كارلو ! » ويضغط على زر الجرس .

يظهر الخادم . فيقول جان :

– ويسكي .

يقدم له الخادم الشراب .

– اذهب وآت بداريو على عجل . يفرغ جان كأسه ويسكب كأساً آخر .

بعد ذلك بلحظات

يلف جان نفسه بمعطف النوم ويجلس في سريره . يدخل داريو بحراسة الخادم .

يسأله جان :

– هل ذهبت لمقابلة لوسيان ؟

فيقول داريو :

– نعم . وقد عدت منذ ساعتين .

– لماذا لم تأت لمقابلتي ؟

– ظننت أنك نائم .

– أنا لا أنام قط . إذاً ؟ هل قدمت إليه اقتراحي ؟

– قلت له انه طليق غداً إذا حافظ على هدوئه .

– وماذا أجاب ؟

– قال انه في ذات اليوم الذي يطلق فيه سراحه سيعود إلى الكتابة ضدك .

يتطلع جان لداريو بوجهه الميت . ثم يكتنف وجهه فجأة غضب ملؤه الاضطراب ويقول .

– اذهب ولما لم يتحرك داريو ، يبدأ جان بالصياح :

– أخرج ، أخرج ، يا لله !

يخرج داريو ببطء . يسكب جان لنفسه كأساً من الويسكي ويشربه .

جان قبالة هيلين .

– ذات يوم ، قالوا لي انه مريض . ذهبت لمقابلته ...

شهادة جان (عما مر قبل سنتين)
معسكر المنفيين

تتوقف سيارة جان الكبيرة البيضاء في باحـــة المعسكر المركزي . يترجل جان .

يقدم له أحد الضباط التحية ويقتاده إلى مصح المعسكر . كان لوسيان وحده في الزاوية ، ممدداً قد نحل جسمه ولمعت عينـــاه . يتجه جان نحو الضابط :

– اتركنا .

يخرج الضابط . يأخذ جان مقعداً ويجلس عليه قرب سرير لوسيان ، الذي يبتسم له بإعياء .

فيقول له جان بصوت مخنوق :

– يا أخي الصغير !

فيقول لوسيان :

– فكرت بأنك ستأتي .

– هل أنت بحال سيء ؟

– كلا . ولكنني سأموت في ريعان الشباب .

يمسك جان يد لوسيان ويضعها في يده !

– أتكرهني ؟

– لا ، بل ألومك . فأنا أبقيت على نظافة يدي حتى النهاية . ولا آسف على شيء .

يسحب يده من يد جان وينظر إليه بقساوة :

– يداك مليئتان بالدماء .

فيقول جان :

– أعرف ذلـــك . أو تظن اني لم أكن أود أن تبقى يدي نظيفتين أنا أيضاً ! ولكنني لو كنت مثلك لظل الوصي على عرشه . فالطهـــارة من الكماليات . لقد سمحت لنفسك بذلك ، لأنني كنت إلى جانبك وكنت ألطخ يدي .

يفتح باب المصح . يرتعد جان إذ يرى منفيين يدخلان وبيديهما طبقان مليئان . يصيح فيهما أحد الحراس : « أخرجا ! »

يخرج المنفيان راضخين مغتاظين .

فيسأل جان :

– ما هذا ؟

فيقول لوسيان :

– بعض الرفاق . عليهما أن يأكلا في الخارج لأنك أتيت لزيارتي .

يخفض جان رأسه .

ويقول لوسيان :

– ليس من أجل نفسي أكرهك . بل من أجلهم .

يرفع جان رأسه بنوع من الغيظ :

– قلت لك اني لست بآسف على شيء !

كان عليّ انقاذ الثورة . فلو أممت البترول لاندلعت الحرب .

فيقول لوسيان مشدوهاً :

– ولماذا لم تقل ذلك ؟

– لم يكن باستطاعتي .

– هل كان من الواجب نفي هذا العدد من الأشخاص لإنقاذ الثورة ؟

فيقول جان .

– فلو أعاد الأجنبي الوصي إلى الحكم ، ألم يكن حصلت حوادث نفي

تفوق هذه بمئة مرة . كان عليّ أن أختار .

ينهض جان ويسير بمحاذاة سرير لوسيان .

– لوسيان إن كل البلاد ضدي . وبعد سنة أو سنتين ، سأخلع وسأرمى بالرصاص .

– إذاً ؟

– بإمكاني ان أصمـــد خمس سنوات . وخلفائي لن يستطيعوا انتهاج سياسة غير سياسيق . غير ان الثورة قد تم إنقاذها . وبعد سنوات ، سيعود المنفيون ، ويصبح بإمكاننا تأميم البترول ، وسيصبح الناس سعداء بفضلي أنا ، الطاغية الذي سيلعنونني أيضاً . وأنت . ماذا صنعت ؟ وما ينفع الحديث عن العدالة ما لم نسع لإحقاقها ؟

ينظر لوسيان إلى جان بنوع من اليأس :

– لماذا تقول لي هذا هل تريد أن أموت يائساً ؟

ويقول لوسيان :

– لا . لا .

يعود جان للجلوس على المقعد قرب لوسيان ممسكاً رأسه بيديه .

– أتظن بأني لست يائساً بدوري ؟ أخذت كل شيء على عاتقي . جميع الجرائم وحتى موتك . كما واني أرتاب من نفسي .

يرفع جان يده ويضع فيها يد لوسيان .

– جان ، أظن اني أفهمك .

ينهض جان رأسه ، يسأل لوسيان بنوع من القلق :

– هل كان من الأمور السيئة أن يبقى المرء نقياً ؟

– أنا .. أنا لا أعتقد ذلك . بل أظن انه كان يلزم رجال من أمثالك يلزم الكثير من أمثالك . لوسيان ، لقد صنعنا ما استطعناه ، لقد خـــدم كلانا حتى النهاية . إصغ . ذات يوم سيغزون القصر وسيحكمون عليّ بالموت . اني أتمنى ذلك تقريباً . ولكن شيئاً واحداً يهمني ! أود ان أعرف إذا كنت

أنت تبرئني ؟

يضغط لوسيان على يد جان بقوة :

– لقد صنعت ما استطعت إليه سبيلاً .

يضع جان يده حول كتفي لوسيان ويشده إليه :

– يا أخي الصغير .

المحكمـــة

ينهض فرنسوا ويسأل جان :

– من يثبت لنا بأنك تقول الحق ؟ من يثبت لنا بأن لوسيان قد برأك ؟

لا شيء : بإمكانكم أن تفكروا ما تشاؤون .

يتجه جان بلهفة نحو هيلين ، فتقول له هيلين :

– اني أصدقك .

وبعد ان تكلمت هيلين ، أخذت هي وجـــان يتبادلان النظرات ، وكما جرى عند دخول هيلين إلى القاعة ، اختفى جميع الناس . لم يعد هناك سوى هيلين وجان في القـــاعة . ثم يقول صوت فرانسوا : « رفعت الجلسة » . وظهر الجمهور من جديد يتدافع إلى المنافذ . تنسحب هيئة المحلفين للمناقشة . ظل قسم من النظارة في أمكنتهم . بضعة حراس وحجـــاب يتنقلون . يظل جان في مكانه واقفاً وتقترب هيلين منه . لقد عزلا نسبياً في الفسحة الواقعة بين المنصة وصف المقاعد الأول . هيلين مرتبكة . يسألها جان :

– هل تغفرين لي ؟

– اني أصدقك يا جان . أصدق كل ما قلته .

– لم أكن أتمنى غير ذلك قبل أن أموت .

تتطلع هيلين نحو جان بنوع من اليأس .

– لماذا لم تتكلم قط ؟ لماذا لم تقل قط بأنك كنت تحبني ؟

– كنت أظن بأني أرهبك . كنت أحبك كثيراً يا هيلين :

أحببتك منذ اليوم الأول .

وتصعد الدموع إلى عيني هيلين .

– أنا أيضاً يا جان . أحببتك في الحال .

انه خطأي . لقد كذبت على نفسي بسبب الكبرياء . كنت أحبك ، لكنك كنت ترهبني . كنت أجدك شديد القوة شديد القساوة . ولوسيان كان نظيراً لي . كنت أظن بأنك لا تحتاج لأحد وشئت ان أتحداك . فهل تغفر لي أنت بدورك ؟

– هيلين !

يهم جان بالكلام ، ولكن المحلفين يعودون إلى أمكنتهم ، ويتدفق الجمهور على القاعة من جديد . جان وهيلين منفصلان عن بعضهما ، يعودان إلى الجلوس ، كل في مكانه بدون ان يتفارقا بأعينهما .

يسكت الجمهور ، عندما يقف رئيس المحلفين ويعلن بإشارة من جان:

– تعلن هيئة المحلفين بأن المتهم مسؤول عن كل التهم الرئيسية الموجهة إليه .

يعود الرئيس إلى الجلوس . ويقول فرانسوا ببساطة :

– الموت .

يتعالى التصفيق بين صفوف الجمهور ،تتصاعد صيحات سرعان ما تنطفىء.

يظل الجمهور صامتاً على الإجمال . ينهض جان يأخذ حارسان مكانهما على يساره وعلى يمينه ويقتادانه نحو المخرج . تنهض هيلين وتود أن ترتمي نحو جان . يمسك فرانسوا بها . وعندما يمر جان أمامها يبتسم لها . فتقول له هيلين :

– أحبك يا جان .

فيقول جان :

– شكراً .

ويذهب بين حارسيه .

مكتب جان

السفير قبالة فرانسوا يتكلم بأدب ولكن لا يكاد يخفي ما ينطوي عليه كلامه من تهديد . يصغي فرانسوا إليه بشجاعة .

ويقول السفير :

– إن حكومتنا لا تتمنى أكثر من إقامة علاقات ودية مع حكومتكم على اني مكلف بإبلاغكم بأنه إذا أقدمتم على تأميم البترول وانتزاع ملكيته من رعايانا ، سنعتبر ذلك بمثابة حالة حرب .

فيقول فرانسوا :

– ليس لحكومتكم حق التدخل بشؤوننا الداخلية .

– كما تشاء يا صاحب السيـــادة . وأذكرك بأن بلادك صغيرة وبلادنا كبيرة .

تمر فترة صمت . ويكرر السفير بأدب :

– تنتظر حكومتي إجابة دقيقة .

فيقول فرانسوا :

– لن نمد يدنا للبترول .

ينحني السفير مبتسماً ابتسامة ساخرة .

– لا ننتظر من سيادتكم أكثر من ذلك .

ثم ينسحب . من الباب يتطلع الخادم نحو فرانسوا :

– وفد عمال البترول بانتظارك يا صاحب السيادة .

فيقول فرانسوا :

– انتظر . اعطني كأساً من الويسكي .

يقدم له الخادم الشراب بدون أن يقول شيئاً ثم يومىء للخـــادم ويقول بوجه مهتم :

– أدخلهم .

النهـــاية

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تلفون ٢٣١٩٣٠ ص.ب ١٣٩٠

منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

توزيع المكتب العالمي للطباعة والنشر

بيروت - شارع سوريا - بناية ثابت

تلفون: ٢٣١٩٣٠ _ ٢٥٥٢١٧ _ ٢٤٩٩٢٣

ص.ب: ١٣٩٠

برقياً: مكتحياة. بيروت

١٩٧٥

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان